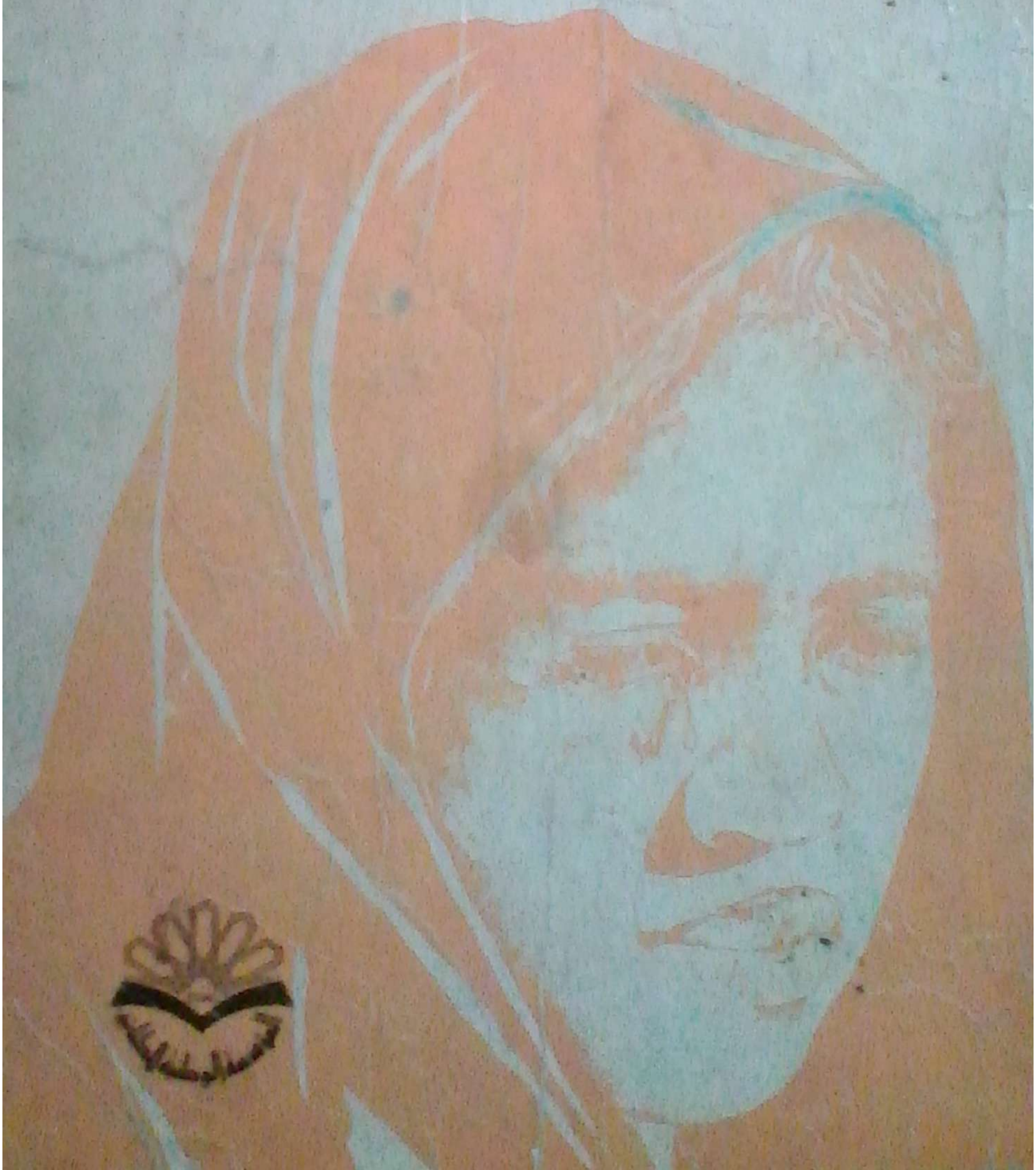
زهور ونيسي

الظلال الممتدة



زهور ونيسي

الظلال الممتدة

قصص

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر - 1985

للمؤلفة

ـ الرصيف النائم : مجموعة قصص قصيرة .
أصدرتها الدار القومية للطباعة بالقاهرة سنة 1967 .

ـ على الشاطىء الآخر : مجموعة قصص قصيرة .
أصدرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1974 . الطبعة الأولى
و1979 الطبعة الثانية .

ـ من يوميات مدرسة حرة : من الأدب الروائي .
أصدرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1979 .

رقم النشر : 1649 / 84

الجزائر ـ 1985

إهداء

إلى الوالدين العزيزين :

على أونيسي الذي توفي وهو سعيد بنهار تربيته .
وزكية أونيسي التي لا تزال نستمدّ منها البركة والدّعوات ..

إليهما وقد سبقا عصرهما في نبذ الذّهنيات المريضة ، التي تميز بين البنت والولد : في ظروف كان ومازال يصعب فيها ذلك ...

البـــارّة
زهـــور أونيـــسي

مقــــدمة

بقلم : عبد الحميد مهري

القصة ، في شكلها الفني المتـــكامل ، وفي مضامينها العميقة حديثة في الأدب الجزائري .

وهي على حداثتها ، كالثورة التي انبتتها ، بدات تعطي ثمارا بواكر يانعة وتبشر بوفرة وجودة اذا وجدت من النشر فعالية اكبر لوضعها بين يدي القـارىء المتعطش ووجدت من النقاد ، وهم قلة ، العناية التي تشحذ حولها الوعي والذوق وتبوئها المكانة اللائقة بها بين اصناف الادب وفنونه .

واجيال القصاصين عندنا تتجاور في حقبـــة من الزمن اختصرتها التغييرات العميقة التي واكبت الثـــورة والتي ما زالت تتفاعل وتدفع الى الـسطح نباتا غضا يحمــل في طياته عناصر القوة والنماء ، بعضه شق طريقه الى النضج والعطاء ، والبعض الآخر ما زال في حاجة الى رعاية حتى يكتمل وينضج . كما تدفع هذه التفاعلات احيانا اخرى من جذور الماضي انفصلت عن معاني الحيـــاة والخصب فهي لا تنفع الا بعودتها الى الأرض الطيبة لتصبح ســمادا .. لغيرها

وتاتي مجموعات القصص التي انتجتهـــا الأخت زهور ونيسي ، فيما انتجت ، مثالا على ما يمكن ان يعطيه هذا

التفاعل من دفع لادب القصة متصلا بجذور المجتمع متطلعا الى آفاق المستقبل الرحبة . وهو يتمـــيز عن المحاولات الجامحة بعيدا عن جذور المجتمع وعن التقوقع العقيم حول مفاهيم ضيقة لقيم المجتمع وتفاعلاته .

وتفاعلات المجتمع الجزائري تستشف من قصص الأخت زهور ونيسي في صور صادقة متكاملة ولعل الحرص على هذا الصدق هو الذي يجعل القارىء ، في بعض الاحيان ، يتخيل صور الحياة تقفز الى سطور القصة دون ان تاخذ في طريقها اللباس الفني الذي يطغى عند بعض القصاصين عن الحقيقة حتى يحجبها .

ان الشعب الجزائري ممثلا في الثورة والمجتمع الجزائري ممثلا في الأسرة هما البطلان القائمان في هـــذه القصص بجانب الأدوار الأخرى التي يتجاور فيها المناضل والجندي والمعلم والطالب والعامل والفلاح والأب والأم والأبناء .

وزهور ونيسي كمثقفة مناضلة تنطلق من قناعاتها وتجربتها دون شطط كأنها تحاول ان تحارب الســوء دون اساءة الى صاحبه وتقوم المعوج في رفق واناة كأنها تعظ او كأنها تعلم فهي تنتصر للمراة دون تحامل على الرجل وتقسو على الظلم بابراز نضال المضــــطهدين وتترك لهؤلاء وتلك باب الأمل والمستقبل عريضا مفتوحا مطلا على الابتسامة والاشراق !

والذي يعرف عناء الكتابة لا يمكن الا ان يعجب بالجهد الذي تبذله الأخت زهور ونيسي في الانتاج الأدبي بجانب مسؤوليتها العائلية والنضالية والحكومية ويرجو ان يتواصل هذا العطاء ، ولا اعتقد ان تفرغ الأخت ونيسي للكتابة سيكون لصالح الانتاج الأدبي لان انتاجها يستمد اساسا من نضالها والتزامها ومن نشـــاطها اليومي في ميادين هذا النضال والالتزام .

الإهـداء :

إلى بطلي هذه القصة الواقعية الملحمة ...
الأخ المجاهد سي عمار والأخت المجاهدة زينب وهما ينعمان اليوم بالذكرى العشرين لحرية الجزائر ...
كلّ من موقعه ... وقد كان الموقع واحدا ، والظروف واحدة ... والهدف الجزائر ...

زهـور أونيـسـي .

كانت نوافذ الغرفة كبيرة ، والشمس من خلالها ، وهي تتسلّل برفق ، تكاد بأناملها الذهبية ، تقبّل كل شيء ، وتبرز بضيائها معالم الموجودات ، وتعطيها طابعا من التأكيد ، والتجدد ، والحياة .

وزينب ، كانت من بين تلك الموجودات ، تشعر بالضياء يتسلل إلى نفسها الهادئة ، فها هي تجاور الشمس ، في أعلى غرفة ، بأعلى عمارة في المدينة الكبيرة ، تؤنسها ذكريات ستين سنة من ممارسة الحياة ، تكاد تطغى كل مرة على برامج التلفزيون المكثفة في هذه الأيام ، إن التلفزيون أصبح تسليتها الكبرى مع أحفادها ، تعلمت منه الكثير ، وأدركت أن كل يوم يمر ، يعطينا تجربة ، وكل ساعة تمضي تفتح في عقولنا نافذة على المعرفة ، وتشوقا للحياة ورغبة في تمدّد هذه الحياة .

وزينب تشعر شعورا طاغيا ، أن كل يوم تعيشه ، إنما هو ربحٌ لم تكن تطمع فيه ، أو تطمح إليه ، وفائض عن الأيام التي كان يجب أن تعيشها ، لقد كسبت من الحياة كل هذه السنوات الأخيرة ، التي تسمّى سنوات الاستقلال ، لأنها كانت ، هي في خضم الثورة ، تتصور أنها لن تحضر احتفالات وأعراس الحرية ، وهي التي عايشت أعراس الدم والدموع والعذاب ، وشاهدت الموت يخطف ، ويغتال ، ويحصد ، دون شفقة أو تمييز بين صغير أو كبير ، أو بين الإنسان والحيوان والطبيعة ، عايشت ربيع الطبيعة

يولد ، كل مرة وكل عام ، وربيع الشباب والانسانية ينْخَر ، بجانبه ، تردم بشائره ، وتغتال براعمه ، شاهدت ربيع الطبيعة يشكو من اعتداءات القنابل والمدمّرات ، نحيب ونواح الشيوخ ، جزع الثكالى والأطفال ، والمزيد من الهروب الى المجهول ، وقد اختلطت أزهار كل ربيع عاشته ، بشظايا القنابل ، وركام الموت والفناء .

شاهدت زينب وعايشت كل ذلك . . ولم تكن تطمع في حياة هانئة كالتي تحياها اليوم ، الحمد لله على ماتفضّل به ... كانت دائما تردّد ذلك ...

وراحت زينب داخل ذلك الضياء المحيط بها من كل جانب ، تسترجع إحدى تلك الصفحات الأكثر تأثيرا وضغطا في حياتها ، وقد خصّصت لها الأيام والسنوات في نفسها ، وقلبها وعقلها أكثر من موقع ...

راحت تسترجع كل ذلك بابتسامة تملأ ملامح الوجه كلّه وتعطي للقلب الكهل نبضا معتدلا ، هادئا . في صوت اللحن المداوي يبعث على الإسترخاء . لا يمكن أن نشعر به إلاّ في لحظات حالة الفصل الدقيق ، بين حالة هدوء وأمن نعيشها اللحظة ، وحالات عذاب ، وشقاء وخوف ، سبق وعشناها في زمان مضى وولّى ، ونحس جيدا أننا تخلّصنا منها ، ارتحنا من ويلاتها ، لا تشكل بالنسبة إلينا اليوم أي خطر ، أو أي اضطراب وبالتالي فلا خوف من تذكّرها ، أو حتى استرجاع تفاصيلها الأليمة ...

كان ذلك قبل خمس وعشرين سنة ...

كان الفصل خريفا .. والطبيعة تنذر بالاكتئاب ، والغرفة كانت تجاور الشمس والسماء أيضا ، ولكنها كانت كوخا من بين مجموعة كبيرة من الأكواخ المبنية بالطوب ، في إحدى القرى المعلّقة ، التي لا ترضى بغير القمم مجالا للحياة .. قرية بدأت تخلو من رجالها ، إنه ليس فال خير أبدا أن تخلو القرية من رجالها ، ولكن هذا ما حصل ...

فقد تفرق بعضهم ملتحقا بالثوار ، وقد فقدت الحياة حلاوتها ، بين أحضان الزوجة والولد ، وانتشر طعم مرارة غريبة أغرقت النفوس والمرئيات ، وطغت حتى على الهواء الذي يتنفسونه ، وعاش بعضهم الآخر الأصغر سنًّا ، في جو من الخوف والرعب ، إنتظارا لمصير مجهول ... فها هي الإدارة العسكرية بدأت تشكل قوائمها لاختيار شباب الخدمة العسكرية ، مقياسها الأول والأخير في ذلك ، الشباب والعنفوان وهدفها إفراغ الساحة من أي عنصر شاب ، يمكن أن يسبقها إليه جيش التحرير قائد هذا التمرّد الشعبي الداهم ، وليكن من أهم أدوار هذا الشباب بعد تجنيده مجابهة ذلك البعض الآخر ، الذي يبيع نفسه للموت كل لحظة ، هؤلاء الذين أصبح إسمهم فجأة وعلى كل لسان ، مجاهدين في سبيل الله والوطن ، وحتما فإن من بين هذا البعض الآخر الأب ، والعمّ والخال ، والأخ الأكبر ، والنسيب ...

وزينب إمرأة بسيطة أمية كانت من بين المئات من الزينبات ، والعائشات ، والفواطم ، يتصرفن في كل الظروف ، بوحي الالهام ... وتقودهن عاطفة مشبوبة جارفة ، اختلطت أسبابها وعناصرها ، فهي في الابن وفي الزوج وفي الأرض والسماء وفي قيم أخرى ندركها ونؤمن بها ، ونموت من أجلها ، ولا نراها لأننا لم نعرفها بعلم أو تجربة ، بل ولدت بين حنايانا وعشّشت وفرخت في عروقنا وتجددت ولادتها كل مرة ، مع كل مولود نجيْ به للحياة ...

كانت زينب يومها وساعتها ، وقبل خمس وعشرين سنة ، تخبز الكسرة ، لوالديها وحماها الشيخ ، لأن زوجها الغائب لم يعد يستطعم لا كسرتها الدافئة ، ولا أحضانها الأكثر دفئا ...

أصبح يشوب كل ذلك مرارة انتشرت كالوباء ، وعندما اتضحت لزوجها الطريق ، زالت عن نفسه كل مرارة ، وأصبح لطعم الكسرة التي غدت ترسلها له مرة بعد مرة في الأحراش والمغاور ، لذة لا تفسير لها ، سوى أن فيها رائحة الحياة التي يريدها هو ورفاقه ، يريدونها جميعا ، الذي أدرك منهم ذلك والذي

لم يدركه بعد ، يريدونها حياة في دفء الأحضان والحنان ، وفي حرية الطير والهواء ... وفي لون الشمس وضياء القمر .

وقلبت زينب رغيف الكسرة على وجهه الآخر في الطجين المنقوش ليظهر ورديا تفوح منه رائحة العجين والخميرة . لحظتها توقف بصرها فجأة على ذلك الواقف أمامها ، إبنها البكر ، وبدأت تحدق فيه عضوا عضوا ، من أخمص قدميه ، الى رأسه ، وقد تغطى بشاش أبيض قصير ، برزت من ثناياه خصلات من شعره ، فغطت جزءا من الجبين العريض ، وركزت زينب بصرها على وجه ابنها أكثر فأكثر ، لقد إخضرّ شاربه ، وتبلورت ملامح الرجولة فيه ، إنها لا تعرف عدد سنوات عمره بالضبط ، ولكنها تفخر بأنه بكرها ، وأنه ثمرة شبابها ، وأنه أصبح رجلا ...

وهذه الصفة الأخيرة هي كلّ ما لا تريده هي ، كلّ ما تريده إدارة الحاكم ...

والقوائم بدأت تتشكل ، وسوف لن تغفل عين أبدا ، عن هذا الذي تراه أمامها ، نسخة طبق الأصل من والده ، ذلك الحبيب الغائب سواء عين الحاكم الساهرة ، أو عيون الآخرين من سكان هذه القرية التي ستصبح ثكلى تماما بعد قليل من الزمان .

وكيف بالله عليك يا زينب سترضين بهذه النتيجة ؟ وهل يصح أن يحدث ذلك ؟..

وما هو يا ترى الذي سيحدث ؟ إنها لا تفهم شيئا ، بل إنها تحاول أن تفهم لكنها لا تستطيع أن تفهم حتى نفسها ماذا تريد ...

إنها تشعر فقط ، شعورا طاغيا ، سقط عليها فجأة وهي ترى ولدها الشاب أمامها ، رجلا .. أن الذي سيحدث إنما هو القيامة وهو الكارثة ، وهو الزلزال .

فسرى يازينب ما الذي سيحصل ؟، الذي سيحصل ... هو أنّ ... هو أن إبني سيصبح ليس إبني ... لأن إبني بعد أن تجنّده الإدارة الحاكمة سيقتل حتما ، وفي يوم من الأيام ، أباه ..

نعم الذي ولده . أو سيقتل عمّهُ أو خاله ، أو أن هؤلاء جميعا سيقتلون إبني ... إبنهم ...

كيف ذلك يازينب وما العمل ؟

وهذا الشيخ حموك غائب عن وعيه منذ أن غاب زوجك ، إبنه العزيز ، وها هو يأكل كسرته بشهية غريبة ، وعيناه تجتران الأشياء .. كأي حمل صغير .

وهذا ولدك ، وكأنك تكتشفينه اليوم ، يقف بقامته المديدة ، دون أن يدرك شيئا من انشغالاتك ، أو ما ينتظره ، إن كل شيء على حدّ سواء بالنسبة له ...

بل إنه لا ينتظر من الغد سوى أكلا مضمونا ..

ويا حبّذا عروسا في المرحلة البعيدة . .

وربما قشابية في المرحلة القريبة ، إن هاته التي على جسمه ، قد تآكلت خيوطها وتكاثرت رقعها .

وتحرك ابنها الآخر الصغير بجانبها ليقبض على طرف ثوبها ، وقد تحركت لتجمع الأرغفة الوردية ، وتضعها في (شنير) نظيف رغم قدمه ، وافرغت الجمر من (الطابونة) ودفنت فحمة سوداء في الرماد المشتعل ، لتجدها في المساء . عند الشروع في طبخ العشاء أما الغذاء فالكسرة واللبن هما الغذاء المفضل ، لأنه هو الموجود ، وأدام الله علينا هذه النعمة .

وبعد ساعة من الزمن ، هزّت كيان زينب كله . بينما ظلّت الأشياء والموجودات هامدة جاهلة ، داخل الحوش الصغير ، وتغلغلت كآبة الخريف

أكثر فأكثر ، إلى نفسها الشفافة ، وغلفتها بحالة من النشاط الذهني المرعب ، لا تبدو منه سوى حركة العينين وهما تجوبان الكوخ شبرا شبرا ، في نظرة ضائعة عائمة ، دون تركيز على شيء ، حتى صغيرها النائم إلى جوارها ، كان تحنانها عليه اليوم آليا دون حرارة ، رغم النار التي تحرق حناياها .

رباه .. إنها لا تريد أن يحصل ما تفكر فيه ، إنه الضياع الأبدي أن تفقد رجالها وكيف ؟ أن يقتل أحدهم الآخر ...

وأهل القرية .. هؤلاء الجهلة الضائعون .. الذين لا يدركون ما ينتظرهم ، ومع ذلك فهم أدرى بمصالحهم . إنّ بعضهم لا يريد أبدا أن يفكر ...
وكل شيء عندهم مقدّر ومكتوب ...

ونعم بالله . كل شيء مقدّر ومكتوب ، ولكن هل يمكن التخلص من التفكير في هذا المكتوب .

وها هو زوجها يختار الهروب ، ويتركها هذه المصائب ... وحموها لا يريد أبدا أن يفيق أو يتكلم في شيء ، فما بالك بالتفكير في مثل هذا الأمر أو غيره من الأمور .. إنه أصبح كالفاقد للحس .

والحل ؟ ...
الحل أن يلتحق إبني بأبيه هناك أو هنالك ...

فكرة ، بل حلّ وجيه يا زينب ...
ولكن لقد قالوا أن المجاهدين هذه الأيام أصبحوا لا يقبلون المتطوعين ، أن عندهم كفاية الكافية من الرجال ، والذي يحتاجونه ، إنما هو السلاح ومستلزمات السلاح ...

ومن لزينب بكل ذلك ...

وهي التي تعيش على معيزات تركها ذلك الغائب الحاضر ...

تشدّ الحزام أكثر كلّما وضع طعام ...

وكأنها شبعانة .. وتتأخر عن المائدة حتى تشبع عائلتها ... وتقتات هي على ما تبقى ...

وما أقلّ ما يتبقى ...

مع مرور الأيام ... وجفاف المورد ...

وفي عالم التفكير العميق ، وسط ذلك الصمت الثقيل الأعمق ، في وقت قيلولة يغتالها طنين الذباب الخريفي العنيد ... ووعيد السحب والرياح ...

في ذلك العالم ـ دون أن تقصد ـ تحركت كفّ زينب على خدّها ، لتلامس فجأة أذنها ...

وصاحت : الأقراط !!!

ما الذي حصل ؟ هل خرج إليها جني القمقم ليلبّي الطلبات ؟

هل هي تحلم ؟

إنها حتما لا تحلم وها هي تتذكر بثبات عقل ، أن ما تحمله أذناها إنما هي أقراط ذهبية ، كانت زينب وكأنها تكتشف عالما جديدا ... ونسيت فجأة أن هذه الأقراط إنما هي هدية عرسها من الغالي الذي ربمّا لا يعود .

أليست « الحدايد للشدايد » كما يقولون ؟... وتركز ذهنها على أنها كانت في شدة ، وهاهي تجد الحل لمشكلتها ... ابتسمت زينب وهي تنتصب جالسة ، ابتسامة الغائر ، المنتصر ...

إنها لا تسمح أبدا أن تقع بجزرة ، وهي على قيد الحياة .

يقتل إبنها أباه ، أو خاله ، أو عمّه .. أو هؤلاء جميعا متفرقين أو مجتمعين يقتلون إبنها حبيبها ...

وهو يحمل السلاح في الصف الآخر ، وتدنّس الخيانة روحه ، ولا ينال الشهادة ...

كأجداده ..

وأبيه ..

الأقراط الذهبية ، إنها فرج من الله ...

ولكن هل تكفي ثمنا لتجنيد إبنها ؟.. هل تكفي للباسه ؟ أو لسلاحه ؟

ولم تحاول زينب الاجابة عن هذه الأسئلة الصغيرة المقلقة ، وتوقف ذهنها في أمر واحد وهو :

كيف تنفذ ذلك ؟

بعد أيام قليلة ...

ومع غروب شمس الخريف ، وقد بكر الظلام بالسقوط ، بمساعدة غيوم الخريف الملبّدة ...

ونهاره القصير ...

كانت زينب تقود ابنها الشاب ممسكة بيده في قسوة غير مقصودة ، وكأنه سيفلت منها ، متسلّلة به بين الأدغال والوهاد ،.. دون أن تتوقف لحظة ، لاسترجاع أنفاسها المتقطعة ، أو تجيب عن أي كلمة أو سؤال انحبست في صدر الصبّي المذهول ، وقد أبكمته المفاجأة ، صبّي يحمل سبعة عشر ربيعا ، إنه لا يفكر إلاّ في كسرة مضمونة .. وقشابية جديدة ، وأشياء أخرى ...

ولو أنها بعيدة ...

كانت زينب تعرف طريقها جيدا ...

إنه الطريق الذي لا يخطئه قلبها رغم طوله ومشقته ، ففي هذه الأدغال كانت تلتقي بزوجها المجاهد ، ورفاقه ، مرة بعد مرة قبل التحاقه بولاية أخرى ... هكذا قالوا ...

وفي هذه الأدغال كانت تتعرف كل مرة على الأسباب التي جعلت زوجها ، وأزواج الأخريات ، يرحلون عن أحضان الزوجة والولد ...

ويفضلون نوعا آخر من الدفء وكأنهم مسحورين ... بعوالم لا مرئية .

فهل يعقل هي اليوم ، أن تترك ابنها ، بكرها ، تأخذه منها الإدارة الحاكمة . وتلبسه تلك الملابس الزيتية اللون ، وتحمّله بندقية ، وتأمره أن يضرب بها صدور أولئك الذين يوجد من بينهم ، أبوه ، وعمه ، وخاله ؟

ـ ويصبح إبنها بين لحظة وأخرى ، كافرا يقتل إخوانه المسلمين .

ـ ويصبح إبنها بين لحظة وأخرى ، خائنا لوطنه ودينه ..

مواليا للحاكمين الغازين ...

وهم يدوسون كل القيم في أرضه وأرض أجداده ...

وكيف يعقل أن يصبح بعد كل ذلك إبنها حبيبها ...

إنها بعد ذلك ، سوف لن تعترف به أبدا ، وسوف تنكر معرفته ...

وهي لا تريد أن يحصل ذلك لأنه إبنها قطعة عزيزة منها ...

ومن حياتها ...

واشتدّ وقع خطواتها ودقّات قلبها على الأرض والظلام ، وكأنها في كل خطوة تجهز على ذلك التنين الكبير من الحيرة والعذاب وتحاول القضاء عليه قبل أن يقضي عليها ويقضي على هذه الروابط التي تربط أسرتها الصغيرة رغم تفرقها ...

وعلى هذا التوازن والاستقرار والرضا الروحي والنفسي الذي تعيش عليه .

توقف ...

من أنت ...

كانت زينب تنتظر مثل هذه المفاجأة ، فقد سبق وسمعتها وأجابت عنها ، بكلمات السرّ التي كانت تتغير كل مرّة .

ولكن صوتها وهي تردّ ، كان غير غريب على ذلك العملاق الواقف في حضن إحدى الصخرات الكبيرة ،.. مصوبا بندقيته .. نحوها ،.. رغم أنها لا تراه ،..

كانت حاسة السمع تؤدي دور الحواس الأخرى مجتمعة ، في ذلك الظلام الدامس والظروف الخاصة .

ودخلت زينب المغارة ، فيها كل ما يحتاج إليه الأحياء ، الباحثون عن الموت في كل لحظة ...

وتكلمت زينب كثيرا ...

كثيرا ...

واستمعوا إليها بكل صبر ورحابة صدر ، لكن القائد ، ومن معه من المجاهدين ابتسموا وهي تمدّ يدها ببعض الأوراق النقدية قائلة :

– أيها القائد هذا ما عندي ...

إشتروا لولدي بها لباسا عسكريا ...

ولا بأس أن يسير معكم بدون سلاح ، حتى يغنم سلاحه في إحدى المعارك ، أعطوه سكينا ، أعطوه قطعة حديد ، يحصل بها على سلاحه ، فقط لا تتركوه يتجندّ هناك في الجانب الأخر ، ضدكم ...

وضدّ أبيه ...

قالت زينب الكلمة الأخيرة ، بعد لحظة صمت رصاصية ، طالت نوعا ما ، بعد أن كانت ترصّ كلماتها رصّا سريعا متتاليا ، وكأنها تخاف أن تفلت منها فرصة العمر ، في أن تقول كل ما تريد ، وتنذرهم بالخطر الذي يتهددها ويتهددهم وكأنهم لا يعلمون ..

وكانت ابتسامة القائد ، وهو يمدّ يده ليقبض الوريقات النقدية ثم يرجعها لها ، إبتسامة أشبه بشلال من الدموع اللامرئية ...

وخبأ بعض الحاضرين وجهه بكفيه ...
وابتسمت زينب أخيرا ...

وهي تتابع حركات القائد وقسمات وجهه الراضية ، ونظرته الحنون ، وهي تلتقي بنظرة إبنها الشاب القلقة ...

وابسم الشاب بدوره وكأنه لم يكن يدري من الحياة شيئا ، ثم علم كل شيء عنها في لحظة من زمن ...

ورجعت زينب ...

رجعت من رحلتها القصيرة عبر ماضيها البعيد ...

رجعت على صوت حبيب عذب .. يتساءل :

ـ جدّتي ألا تشاركينا قهوة العصر ؟

كان ذلك صوت حفيدها بقامته المديدة ، ولباسه العسكري ، وقد بدت أزرار البذلة ذهبية لمّاعة وهو يقف مبتسما متسائلا ...

وفركت عينيها وهي تجيب :

ـ هذا أنت يا أحمد ، ولكن لماذا خرجت اليوم من الثكنة .. إنه ليس يوم عطلتك ؟

ولكن الشاب أجاب راضيا بحنان ظاهر :

ـ ألا تدرين يا جدّتي ؟ يبدو أنك أصبحت عجوزا حقا ؟ إنه يوم عطلتنا جميعا ؟ إنّ اليوم ذكرى الحرية يا جدّتي عشرون سنة كاملة قد مرّت على الإستقلال .

وأجابته زينب بابتسامة كبيرة مشرقة .. وهي تمدّ يدها له ليساعدها على النهوض .. وقد استرجعت نفسها في الحاضر ...

ـ حقا الحمد لله ...

فكانت ، وهي تنتصب واقفة ، بقامتها اللطيفة بمحاذاة حفيدها الشاب ، كشجرة سامقة ، تمدّ ظلالها على حفيدها وعلى جميع الأحفاد ...

حَديقةُ الله

للتمـــزيق ...

كانت آخر كلمة كتبها بعد أن شطب على إمضائه في آخر القصة ، وقد تعوّد في المدة الأخيرة أن يفعل ذلك ... يكتب ، ويكتب ، ويكتب ثم يختم كل ذلك بقراره النهائي ...

للتمـــزيق ...

منذ مدة طويلة كان يتخذ هذا القرار في آخر كل محاولة كان يقوم بها في الكتابة ، إنه لا يرى في نفسه أي أمل .. أن يكتب وينشر ويملأ صفحات الصحف والمجلات بفكره وأدبه ، فيعوض لنفسه ماضاع منها ، نتيجة هذا المرض الملعون الذي لازمه أكثر من سبع سنوات .. ولم لا ؟ أليس أهم نقطة حية فيه هي عقله ؟.. أليست الأفكار هي محور حياته بعد قعوده ، هذا الطويل ؟ كل شيء ساكن فيه ؟ ماعدا هذا المارد ، ذهنه ، الذي يتنقل بقلبه ونفسه متطاولا على الزمان والمكان . لا يتوقف لحظة واحدة ، حتى أصبح يخاف أن تظهر أفكاره على قسمات وجهه ، وتغشى كل جسمه ، لتنطلق متمردة سافحة ، فتحطم كل ما حولها . وتؤدي كل ما عجز الجسم عن القيام به منذ مدة طويلة ... ذهنه ، هذا المارد المتمرد ... أليس الأجدى أن يضبطه

ويغلق عليه في قمقم ، يسدّ عليه منافذ الهروب ، والتورع .. ويصقله صقلا ، ويجعل منه الفن الذي ظل طوال حياته يحلم به ، ويحبس أنفاس هذا الفن فوق ورق أبيض ، يزيد في كمية مايقرأ الناس ، تجربة ومعاناة ، فيحمدون له شجاعته وإيجابيته ، وليتم على الأقل ما بدأه في شبابه هو ورفقاء له بلغوا ما يتمنون وبقي هو يمضغ الكلام بغير لسان ... إنه لا يرى لنفسه اليوم إلاّ أن يقرأ .. ويقرأ ، فحسب ، لقد أصبح يلتهم كل ما تقع عليه عيناه وكم أحبّ أصدقاءه الذين يصحبون معهم كتبا وصحفا عند زيارته .. أما النشر فلماذا يأمل فيه كالآخرين أو في اختراق عالم النور والحركة من جديد ، لقد أصبح يعتقد أنه يختلف عنهم كل الإختلاف .. فهم أصحاء وهو مريض ، وهم سريعوا الحركة وهو يكاد يدب بمساعدة رجل ثالثة ... إنه يختلف عنهم في كل شيء ، حتى التفكير ، لقد أصبح يعتقد أنه يفهم الحياة كثيرا ... يمتلكها بما فيها بصمته الطويل وسرحاته الدائمة ..وملكتهم الحياة فأصبحوا عبيدا لها ... لساعاتها ودقائقها وأحداثها ... السريعة الخاطفة .. إن له من الوقت للتأمل أكثر منهم ... صحيح أنه لا يتحرك ولكن هناك في نفسه ذلك المارد الذي لا يتوقف حتى في ساعات الليل الأخيرة ، حيث يتعب الذهن عندما يتعب الجسد ، وأين لجسده هو أن يعيا أو يتعب ... ومعظم ساعات النهار والليل يقضيها محتضنا مرضه ، على سرير لو نطق لقال : أيها الناس فوقي تنام الحكمة ، ويرقد الفكر ..

ظروفه أصبحت ملكا له ، في الوقت الذي أصبح الآخرون ملكا للظروف ، لقد ملك الحياة نفسها ، بعد أن صارعها كثيرا ، وصارعته عدة مرات ، عدة مرات أعتقد أنه سينتهي فوق طاولة العمليات الكثيرة التي أجراها له الطب يحدوه الأمل دوما في الشفاء التام .. وفي كل مرة ـ رغم استعداده للقاء العالم الآخر ، كان يخرج من جديد إلى عالم الأحياء ، بإيمان أقوى بالله ، واستهانة أكثر بالحياة ، وظروف الحياة ، ومصير الإنسان بينهما .. وكأنه بين شقي الرحى ،

كل الشقين يحمل النهاية أو الخطر .. وخوف غامض كالشبح اللحوم يتحكم في الأعصاب ليفقدها في كل وقت الطمأنينة والراحة .

هل لا بد للإنسان أن يمرض طويلا حتى يعرف كل هذه الحقائق ؟ كانت هذه التساؤلات تتمكن من نفسه كثيرا وهو على الفراش ، أي فراش وفي أية مستشفى .. وقد حجّ إلى الكثير منها في الداخل والخارج . كانت سعادته تفوق الوصف عندما تضع الصدفة سريره أمام نافذة من النوافذ . كان يعتقد ساعتها أنه ضيف الله في قبته الزرقاء .. فيقضي السويعات شاردًا تارة ومتأمّلاً حركة المرور والناس تارة أخرى ... وقد تجمهروا .. وتكاثروا .. وكأنه لا وجود للموت أو الفناء .. كم ابتلعت منذ الأزل أيتها الأرض ... ومازلت جائعة نهمة ... خصوصا للبشر الجائع المحروم .. وكأنك تعشقين أرواح المحرومين .

والمعذبين في أراضيهم الطيبة ... رجال ، نساء ، أطفال ، سيارات ، جنود ، شرطة على أرض الشارع الطويل ، كان يرى الإنسان والآلة في عملية تسابق غريبة ، تارة يركبها ، وتارة تركبه .. في وئام وتحابب تارة ، وفي عداء وخصام تارة أخرى .. وكأنهما دفتان لباب الحياة الكبير .. لا استغناء عنهما .. هؤلاء الناس كل منهم يدبّ إلى عمله برجلين قويتين وقامة مشدودة ، ورغم ذلك كانت ملامح الوجوه شديدة التهجم ، كثيرة العبوس ، غير راضية على كل حال .. التطلع إلى الأحسن ؟ وربما المشاكل ؟ وهل المشاكل إلاّ .. الجزء التافه أمام مشكلة سلامة وصحة الإنسان ؟ . هؤلاء الناس كم يبدون قليلي الإدراك . .

وهل لا بد أن يمرّوا بمحنتي حتى يدركوا ذلك ؟ فلا يشكون بعدها من الحياة أبدا .. أبدا والله العظيم .. إنها قوانين اللعبة لأبطال ونجوم يمرّون باستمرار على مسرح الحياة العريض .عندما يدركون ذلك ربما يكون الوقت قد فات . .

ولكن الوقت لم يفت بالنسبة لعبد الباقي ، وها هو يستعيد من جديد الرغبة في الحركة ... فيضم الوريقات جانبا بعد أن أمضاها ككل مرة (للتمزيق)

ليقف مستندا على صديقته الجديدة .. رجله الثالثة .. وإبتسامة جمعت بين الرضا والإستخفاف والوقار تملأ وجهه الأبيض الجميل ، وتزيد في بريق عينيه الملونتين ، بريق فيه النضج ما يستغني به عن أي شيء آخر .. في العقد الخامس عمرا وفكرا .. وفي العقد الثاني لطفا ودماثة ... للون شعره لمعان الفضة مذابة في أسلاك بلورية ، تنبض بالحياة والأمل رغم كل شيء .

وتحرك ... ليخطو خطوته الأولى .. خطوات بطيئة .. لكنها خطوات .. هي للحركة أكثر إنتماء منها للسكون .. .وأطل برأسه على المطبخ لتصافحه إبتسامة الرفيقة ... أم البنين .. كم تحملت هذه الإبتسامة .. وكم ستتحمل ، إنها مريضة في روحها منذ مرض هو ... ورغم ذلك لا يمكنها أن تفكر في أن تمرض ، بعض الناس ليس لهم الحق حتى في أن يمرضوا ... أو يموتوا .. هكذا كتب عليهم ... أوهكذا أرادت لهم الظروف .. .

ويبدأ بنزل .. .درجة بعد درجة .. السلم طويل .. وسكنه في الطابق الرابع ، لا بأس . إن أمنية الأمنيات قد تحققت ، وهاهو يتحرك ، ويتنقل من آخر بعد أن كاد ييأس واقتنع بنعمة النبض مع نقمة التمدد على الفراش .. هنيئا لك ياسي عبد الباقي هذه النتيجة .

قالها لنفسه ، وهو يفكر في ساعة الرجوع .. لابأس أنه سيجد من يعينه من أطفاله .. في عملية العودة من الحديقة .. .

إننا في المدينة على كل حال .. وليس هذا هو المهم .. إنما المهم من يعيش في هذه المدينة ... تبا للتخريب والمخربين ... فالمصعد موجود ولكن حاله أشبه حالي .. والنور موجود ولكن أيد كثيرة لا تريد أن تترك هذا النور موجودا .

وتوقف سي عبد الباقي ، عند إحدى البسطات ، ليرد النفس وقد غضبت عيناه ، هكذا يخربون بيوتهم بأيديهم ... وأسقط غضبه على حافة الدرج ليهيء لنفسه الخطوة التالية ... وفجأة وجده ... كبيرا وبشوارب أيضا ... لا

داعي لأن أسلم عليك ، ولا أن أطأك بقدمي ... فالذنب ليس ذنبك .. الذنب من تركك ترتع في حقول غيرك ... أصاعد أنت أم نازل ؟ . . لا تريد أن تجيب ... وتتكبر أيضا ؟ حسنا .. خذها من رجلي الثالثة .. أيها اللعين ..

كان صرصارا من النوع الكبير الأحمر ... يسرح ويمرح .. وقد غفلت عين الرقيب ... لا بل الرقيبة ... إن الشغالة تقبض من الجيران مبلغا كبيرا نظير تنظيف هذا السلم .. ولكن أطفالهم يحتجون على ذلك بطريقة ترك حالة القذارة على ما كانت عليه ... أطفالنا ... أكبادنا ... إنهم الملائكة ... .

وابتسم وهو يتساءل : أطفالنا نتيجة مصاهرة بين الملائكة والشياطين ؟.. مصاهرة جد ضاربة في جذور الزمان . .

يحلو للبعض أن يحددها بحواء وآدم حيث تمثل أمنا حواء جدة لكل شياطين الأرض بعد أن أكلت التفاحة ...

وابتلعته حركة المرور في الشارع الكبير ... فتاه من نفسه ، حتى تاه عن الأنظار الفضولية في الزحام ، إنه واحد داخل المجموعة الكبيرة ... وشدّ قامته في سمت ووقار ، من يدري ؟ الشارع غاص بالناس من كل نوع ، مدرسون ، تلاميذ ، موظفون ، وكلهم ينظر إلى الدنيا وكأنها ديوان كبير ... وفيهم من يعرفه .. فليهزأ إذن من المرض ...

نوبة من الحذر أصابته فجأة .. وهو يرى أحد الأطفال يجري من الإتجاه المقابل ... محركا يديه وكأن بينهما مقود سيارة ... نافخا مرة بعد مرة أخرى ، من فمه صوتا كبوق السيارة ... يالله ماذا لو لم ينتبه هذا الطفل إلى حالتي ... ساعتها سأصبح تحت الأقدام قبل أن أستطيع القيام بأي حركة للهروب من أحلام هذا العفريت ... إنه ولاشك حفيد ملك الأبالسة .. .

وسرعان ماهدأت ثائرة نفسه من هذه المفاجأة ... عندما توقف الطفل عن

حركته مستفيقا من حمله ... لينزوي جانبا في تعاطف وشفقة وشت بها عيناه وحركته الهادئة ، تاركا له المجال للمرور ...

ومرّ وهو يبتسم .. للطفل .. ولطفولته هو أيضا رغم اختلاف الزمان والمكان ...

عندما كان طفلا لم يكن على أرصفة الشوارع الكبرى ولا متشعبطا في مؤخرة السيارات . كان طفلا داخل الحقول الخضراء والسنابل الذهبية .. صحبة أجمل الحيونات وأرقها ... الحصان الجامح ، والبقرة الحلوب ، والكلب الأليف ، والعجل السمين ... طفولته كانت مع ديوان العجائز ، وقد انفردت كل واحدة منهن بمهمة ... فهذه تغزل برنوسا ، والأخرى تنسج فراشا ، والثالثة تخبز خبزا في لون الذهب ... أو تفتل كسكسا في طراوة الزهرات الرقيقة ، كانت طفولته وكان شبابه هناك ... حيث تسكن الملائكة ... كما كان يحلو له أن يطلق على الثوار المجاهدين ...

هاهو يصل إلى الحديقة ...

جميلة والله هذه الحديقة كانت تتوسط شارعين رئيسيين ... وتحتل مساحة من الأرض سمحت بتنوع ممراتها ، واتساع أحواضها وتشكل أنواع نباتها .. مقاعدها رخامية باردة في الشتاء ، ندية في الصيف ...

وتعلقت عيناه بنقطة في الفضاء وهو يجد لنفسه مكانا بين أصدقائه وأحبابه ...ثم مبتسما لهم ومتأمّلاً بين ترحيبهم وانشراحهم أنه سلواهم بفكره وأدبه ... وتواضعه .. .

كل واحد منهم يتميز بسماته وطباعه غير أن ما جمع بينهم كان أقوى ... خلل في جهاز الحياة ... وعطل ... في هيكل الحركة ... والإستمرار فجمعتهم مقاعد هذه الحديقة ، وأمل يراود النفس في التغيير ... إلى الأحسن ... كانت الحديقة بالنسبة لهم جميعا محطة انتظار لا أكثر ... ربما لحديقة أجمل ...

وأعمق ... وأكثر ظلالا ، أكثر نورا وضياء ... فهذا شيخ ينتظر مصيره بين صفوف المتقاعدين ... ينقل باستمرار عينيه كلّما مرّ ساعي بريد أمام الحديقة فيشيعه بعينيه . وهذا تبدو على ملامحه حالة من الإطمئنان كاملة رغم الصم الذي يزحف نحوه دون هوادة ..

وهذا من قدماء المجاهدين ... لا يفتأ يتذمر لأنه نال نسبة من منحة المعطوبين أقل من صاحبه رغم أن نسبة التضرر من الحروب واحدة ... وهذا شاب في مقتبل العمر ... ليست الحديقة أبدا مكانا له لولا ظلام عينيه الدامس . يتسقط السمع في كبرياء مريرة ... يحرك عصاه المرة تلو الأخرى وكأنه يوهم غيره بأنه يقظ لكل ما يفعلون ...

وهذه كهلة وضعت قفتها المليئة بالخضر والبقول بين رجليها في فترة استراحة لا بد منها .. لتستأنف الطريق إلى المطبخ .. .مملكة المرأة منذ الأزل .

وهناك بعيدا ، بعض الأمهات شابات يغزلن صوفا وحولهن أطفال يمرحون في ثقة وأمان ...

وهذا هو سي - عبد الباقي - يجلس بين هؤلاء جميعا ويستأنس بهم من قريب أو من بعيد ، كل يوم وفي مثل هذه الساعة ... الرابعة وتذكر لم يبق على خروج أطفاله من المدرسة سوى ربع ساعة .

ويضحك لهم ، لاصدقائه بعد فترة صمت قصيرة وهو يداعب نظارته التي يقرأ لهم بها الجريدة كل يوم ..

ـ أرني نظارتك ياسي السعيد ، وأنت ياسي محمد ، وأنت ياحاج صالح ...وأنت ياعمي علي ...

قال لهم ذلك وبدأ يتفحص نظارة كل واحد منهم وهو يضحك بصوت مرتفع جعلهم يجارونه بحماس دون معرفة السبب ..

نظاراتنا كلها مكسورة ... من جانب من الجوانب ... منا من أمسكها

بسلك ، ومنا من تركها كذلك ... دون أن تسقط من عنينيه ... هل هي الصدفة .. أم هي تبعيّة الأشياء لأصحابها ..قال الجملة الأخيرة في نفسه وهو يسترد وقارة بعد ضحكته الواسعة .

ومسح الجميع أعينهم بعد ضحكة كبيرة . قال أحدهم إثرها :
ـ اللهم اجعلها خير . من مدة لم أضحك ضحكة من قلبي ...ليجيبه الثاني باستنكار :
ـ وماذا تريد أن يصيبنا أكثر مما نحن فيه ؟ ولبسوا نظاراتهم جميعا وكأنهم يكتشفون قيمتها لأول مرة ... إن قيمة الأشياء في اكتشافها .. وتتعلق عيون أصدقاء العادة والظروف ، بصديقهم سي عبد الباقي وقد سرح عنهم بعيدا بعيدا ، حيث تزاحم في الذهن أحداث من الماضي وتوقعات من المستقبل .... المستقبل الذي لا معالم له عنده سوى هذه الجلسة الهادئة مع هذه النفوس الطيبة ... الراضية والمتطلعة في آن واحد ... إلى ذلك الشاطيء الجميل من أحلام الحياة ...

وقال سي عبد الباقي وهو يحاول الوقوف مستندا إلى صديقته الجديدة : ربع ساعة انقضت ... فلأتحرك لأستقبل الأولاد ـ إنهم في طريق ...السلام عليكم ...

وقبل أن يحرك رجليه كان أطفال ثلاثة في عمر الأمل ، وفي قوة الحياة ، يحيطون بوالدهم يسندونه من كل جانب ..وكل واحد منهم يزقزق بلحنه ... دون أن يدور بخلده أن يوسعوا خطاهم ، أو يتجاوزا خطى والدهم التي بدت ثابتة قوية رغم بطئها .

مجرّد عتاب

وجمع أشياءه ... أشياء مختلفة لكنها تبدو جميلة جدا في عينيه ، وهو يعرضها بطريقته الخاصة ، بعناية دقيقة ، واهتمام بالغ ... كان كل شيء في حركاته - وهو يفعل ذلك - يوحي باهتمام وجدية .

وكأنه يخطط لمعركة ، أو يحل مسألة رياضية .. في ساعة امتحان .

إنها أشياؤه ... أعز ما يملك كما يردد دوما أمام أفراد أسرته ... ويصمت لأكبر أطفال وهو يعلق على قوله :

ـ وهل هي ذات قيمة الى هذا الحد يا أبي ؟

ويجيبه الأب كأنه ينتظر منه مثل هذا السؤال ، حيث الجواب جاهز :

ـ إيه يا بني ، إن كل شيء من هذه الأشياء لا يقيم بثمن .. انني أستطيع أن أحصل على كل شيء بالمال ... إن أردت ... إلا أن أحصل على هذه الأشياء فلا .. وكم حاول البعض أن يحصلوا على مثل ذلك ... وفشلوا .. فقط لأنها أشياء تعاش ... وليست أشياء تباع أو توهب أو تمتلك ... إن كل شيء من هذه الأشياء ، يعني حدثا عظيما ، وقصة حياة ، ومصير جماعة ... إنها التاريخ يا بني ...

كنا نعيش حياة الطبيعة في حالة اضطرار اختيارية ... وكانت أجسادنا تفرز روائح إنسانية . وكان العمر كله يتقمص إحدى اللحظات . لحظة سلم أو حرب .. حيث ينغمس رماد الرصاص والقنابل بأفئدة البعض ليكتوي البعض الأخر بالرذاذ فقط . ويكون الدور لم يحن بعد ...لكن روح انتظار ذلك لا تهتز بالرقص .. أو الهروب .

دمعة وبسمة . سرحة وفرحة ، هي كل موضوع الحياة التي كان يحياها المجاهد ... ولا حق للفكر بالإنصراف بعيدا عن اللحظة .. لا الى الوراء ولا الى الأمام ... إلا في إطار ما سيعطي هذا المستقبل من نصر ... وهنا ينتصر المستقبل ليحتل ذهن المجاهد ... ولا يترك لغيره مكانا شاغرا بعمره ، حتى هذا المستقبل بالنسبة له كفرد .. لا حق له فيه ... الحق كل الحق في التفكير بمستقبل المجموعة ... الكبرى ... الشعب بأكلمه ...

ـ وهل ستهديها لمتحف الثورة يا أبي كما طلب منكم ؟ ....

وهنا يتوقف سي صالح عن التفكير وهو يحاول أن يشبع ناظريه من أشيائه ... في نفس الوقت ، محاولا الأ يكشف أمره من طرف أفراد الأسرة ، وكأنه يلعب في غير وقت اللعب .

ـ ترى هل تهون كل هذه الأشياء ... ويسلمها لمتحف الثورة ... وهل تسليمها هو اهانة لها ... إنها قطعة منه ، وبتسليمها يكون قد سلم أهم قطعة من حياته .. وأجملها .. وأعزها .

ـ إن كل يوم يخرج من حسابنا ، والماضي لا يعود ...

هكذا يردد صاحبهم سي عبد الباقي في الحديقة كل مرة .. وحينما يغرقون في اجترار الماضي .. وقد قال له يوما .

ـ إن قيمة الماضي لا تقيم ... لأننا لا يمكن أن نعيده ، وبأي ثمن .. حتى يبذل حياة جديدة .. إن كل يوم من الأيام له لونه ، وشمسه ، وأحداثه

وعمره . ولو أنها أحداث تتكرر يوميا ولكنها مميزة عن غيرها مما سبق من الأيام .

وها هو سي صالح في حيرة لم تحصل له من قبل . وقد رسبت في نفسه فرضيات غير مفهومة لكنها غير مريحة البتة ..

هل يسلم أشياءه الى المتحف ؟ ... أم لا ؟ وإذا سلمها ... ماذا يتبقى له ... وهو الذي لم يحصل حتى على حقوقه كاملة . من منحة معطوبي الحرب ؟

ثم ما قيمة المنحة نفسها . أمام عملية الحصول عليها ...
لقد عاش لحظات عسيرة وأياما شاقة . وهو يجمع ملفه وأوراقه ليثبت أنه مجاهد . ومعطوب حرب .. وله حق في منحة من الدولة ... كم تقاذفته بلديات ومكاتب ووزارات ومصالح مختلفة ..وكم أهانه فراشون .. وإداريون أياما كثيرة كان لا يسمع فيها إلا إحدى اللهجتين .. إما الشفقة أو التوبيخ ... لأنه وأمثاله من الشعب البسيط .. لم يتعلم ابدا . ولا يدخل في رأسه القانون ... كان ما أن يتم استخراج ورقة حتى تموت الأولى ... تنتهي مدتها .. ويعيد الكرة من جديد ... وكأنه يزاول لعبة الغميضة في ساحة لها مائة باب متشابهة .... في الوقت الذي حصل سي قدور على أهم الشهادات وهو في بيته ... وصلت إليه الأوراق ولم يذهب اليها ... وصلت تجري في جيب أحد ضيوفه الأعزاء ساعة ولمة كثيرا ما تكون بلا مناسبة .. يأخذ سي قدور الشهادة وهو يعلق :
ـ كل من هذه الجهة من الخروف ... إنها أقل دهنا ... إن الضلوع ألذ ما في المشوي ...

هكذا إذن ...

ويا سعد من يستطيع الوصول الى الاذان الكبيرة ... ليوشوش بمطالبه ...

واليوم أصبح مجاهدا سي قدور وربما سيسبقه في تقديم ما عنده حتى يساهم في تاريخ الجهاد .... ومن هو سي قدور ! ! ولعن نفسه ... هل يعني هذا أنه ينتقم ويساوم ..الثورة بتراث الثورة ، وهو يجد ذاته جزء من هذا التراث !

وهل الثورة هؤلاء الإداريون والفراشون وسي قدور وأمثاله ؟... طبعا لا ... اللعنة لأفكارنا أنها خائنة أبدا ... ولله حكمة في كونها لا ترى ... وإلا كنا سببا في المساعدة على انتشار هذه الحشرات المؤذية ...

قبص كاكي شهد معركة بوزقزة ، بقية خرطوشة استشهد بسببها سي محمد ، طاقية صنعها أحد الشهداء في وقت فراغه للتسلية تعلوها النجمة والهلال ، ثلاث رسائل فيها أوامر لعمليات فدائية ... فنجان كسرت عروته كان يستعمله أربع مجاهدين قادة استشهدوا الواحد تلو الآخر ، ساعة يد لإحدى الشهيدات ...

هذه هي أشياء سي صالح العزيزة ، هذا هو كنزه وهذه هي أشياؤه ... وقيمة الأشياء في قدمها .. إن القدم هو القيمة التاريخية الكبرى هكذا يقول العلماء ...

وجمعها جميعا ... في حقيبة جلدية قديمة . كان يفعل ذلك للمرة العاشرة أو العشرين منذ انطلق نداء متحف الثورة ، والرجل يعيش في صراع بينه ، وبين ماضيه ، وما تبقى من هذا الماضي ، وبين حاضره وما فيه ...

أشياء تحويها حقيبة قديمة .. تركزت فيها كل حواسه وأفكاره وشلت إرادته ... أنها الدليل على أنه كان يعيش تلك الفترة ، يساهم في أحداثها ، في ظروفها ، في توقيتها وفي نهايتها أيضا ...

ولكن هل لا بد من دليل يثبت ذلك ... ثم ما فائدة أن يثبت ذلك ؟ وهل وحده صانع تلك الفترة ... إيه أين أنت يا سي صالح أمام الملايين ؟... وابتسم بهزأ من نفسه ، كانت تقاطيع وجهه لا تزال تؤكد أنه لم يقتنع بعد ، بهذا

النداء ... رغم شعوره بالضالة كفرد .

«كل مجاهد ومناضل ، ساهم من قريب أو بعيد ، في أحداث الثورة ، عليه بتقديم ذكرياته لهذا المتحف وحتى نؤرخ للثورة ... »

نعم كلام معقول ... وغير معقول هو أنه يفكر فيه كل هذه المدة الطويلة .. غضبا عنه .. إنه في الحقيقة مقتنع بالمبدأ ... ولكن هو .. بالذات لا يريد أن يفقد أشياءه ... الجميلة الغالية ...

والنتيجة أنه كغيره ، وعندما يستثني كل واحد نفسه ، سوف لن يحصل شيء جميل أبدا ...

ما أصعبها من معادلة ... نصنع الأحداث صنعا ، ثم يصعب علينا أن نساهم في تاريخ هذه الأحداث ... نريد أن نحفظ كل ذلك لأنفسنا فقط كأفراد ، وعندما نموت ... تموت معنا هذه الأشياء الجميلة .. وهذه الذكريات الغالية .. أما لو عمرنا المتحف لضمنا التاريخ كمجموعة كاملة . الشهداء منا والذين ينتظرون . ونكون قد كتبنا للأجيال القادمة الصحفة اللازمة لاهم فترات حياة شعبنا البطل ..

شعبنا البطل .. هذه الكلمة كثيرا ما يرددها سي عبد الباقي في الحقيقة ... إن الرجل يعني دائما ما يقول وكأنه يكشف الغيب ...إنه يذكرني بكثير من الرفاق الذين استشهدوا ..

فكر سي صالح في ذلك كله ثم رفع الحقيبة القديمة ووضعها بصعوبة فوق الخزانة وهو يربت عليها ، وكأنه يحنو على رضيع نائم ...

ولم يصل الى قرار أيضا ... وككل يوم منذ انطلق هذا النداء ...

وتذكر المنحة التي لم يتمتع بقيمتها أبدا . وظل يجتر أشجانه بغصة .. إن له الحق في نسبة أكبر ... وجرحه الغائر في كتفه وصدره دليل على ذلك ..

وأشياؤه أيضا أليست دليلا ؟ ...

ـ وإذن أنت تحفظها لهذا السبب فقط يا سي صالح ؟ ... قل بصراحة أنك كذلك .. هكذا قال له يوما صاحبه سي عبد الباقي وهو يرنو اليه بعينين ذكيتين .. وكأنه يقرأ داخل نفسه بواسطة أشعة كاشفة .

وها هي دوامة هذه الأفكار تكاد تبتلعه اليوم وهو الذي كثيرا ما تجنب الوقوع فيها أو الرضوخ لها ...

وها هو ذهنه من جديد ، لا يريد أن يفصل مطلب المتحف مع قصة المنحة ... واحتقر نفسه لحظات قبل أن يعود الى مجلسه ... ثم فجأة تدق ساعة الحائط العجوز دقاتها الرتيبة ، ليصاحب هذه الدقات بحركات أصابعه دون أن تتحرك شفتاه ، واحد ... إثنين ... ثلاثة ...

ولم تصدر عنه تلك الفرحة والبهجة وهو يتأهب للخروج كعادته ... فالحديقة في انتظاره .. والصحاب قد سبقوه الى المجلس ... لقد أصبح هذا المجلس أملا من آمال يومه ، فيه يخرج من نفسه ليندمج في نفوس أخرى .. فيه تتقلص أفكاره ويتخلص ذهنه من الكثير منها ، مما كان في حجم الفيل ، ليصبح في حجم الذبابة ، أو لا حجم له البتة .. معهم يشعر أنه موجود وجودا من نوع آخر .. وجودا له ظلال ... وأبعاد وامتدادات ، وليس وجودا منفردا ... ويحن يوميا الى هذا الوجود وفي مثل هذه الساعة ...

ويسبقه صوته معلنا للجماعة عن وصوله ... السلام عليكم ...

ـ وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته ...

يرد الجماعة دون أن يمل أحدهم من طول هذا الرد .. لقد سمعوا كثيرا ، أن رد التحية يكون بأحسن منها .

ويجلس بين صاحبين ... ليكون سي عبد الباقي مواجها له ، تاج المجلس كما

وأشياؤه أيضا أليست دليلا ؟ ...

ـ وإذن أنت تحفظها لهذا السبب فقط يا سي صالح ؟ ... قل بصراحة أنك كذلك .. هكذا قال له يوما صاحبه سي عبد الباقي وهو يرنو اليه بعينين ذكيتين .. وكأنه يقرأ داخل نفسه بواسطة أشعة كاشفة .

وها هي دوامة هذه الأفكار تكاد تبتلعه اليوم وهو الذي كثيرا ما تجنب الوقوع فيها أو الرضوخ لها ...

وها هو ذهنه من جديد ، لا يريد أن يفصل مطلب المتحف مع قصة المنحة ... واحتقر نفسه لحظات قبل أن يعود الى مجلسه ... ثم فجأة تدق ساعة الحائط العجوز دقاتها الرتيبة ، ليصاحب هذه الدقات بحركات أصابعه دون أن تتحرك شفتاه ، واحد ... إثنين ... ثلاثة ...

ولم تصدر عنه تلك الفرحة والبهجة وهو يتأهب للخروج كعادته ... فالحديقة في انتظاره .. والصحاب قد سبقوه الى المجلس ... لقد أصبح هذا المجلس أملا من آمال يومه ، فيه يخرج من نفسه ليندمج في نفوس أخرى .. فيه تتقلص أفكاره ويتخلص ذهنه من الكثير منها ، مما كان في حجم الفيل ، ليصبح في حجم الذبابة ، أو لا حجم له البتة .. معهم يشعر أنه موجود وجودا من نوع آخر .. وجودا له ظلال ... وأبعاد وامتدادات ، وليس وجودا منفردا .. ويحن يوميا الى هذا الوجود وفي مثل هذه الساعة ...

ويسبقه صوته معلنا للجماعة عن وصوله ... السلام عليكم ...

ـ وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته ...

يرد الجماعة دون أن يمل أحدهم من طول هذا الرد .. لقد سمعوا كثيرا ، أن رد التحية يكون بأحسن منها .

ويجلس بين صاحبين ... ليكون سي عبد الباقي مواجها له ، تاج المجلس كما

يعلو لهم أن يدعوه .. وينظر تجاهه دون أن يحدد النظر وكانت نظرة عائمة ترى كل شيء ، ولا ترى شيئا .. كان سي صالح يميل الى سمنة مترهلة .. لم تكن لديه قبل الإستقلال ، لقد فقد الرشاقة عندما فقد الحركة ... ذراعه اليمنى كانت متوقفة بين صدره وكتفه .. لا تنطرح أبدا ... وتكتفي بحمل ولمس الأشياء الخفيفة . والشعيرات الباقية على صلعته تكاد تسقط كلها . وقد غزاها البياض . وشواربه ... منها فقط تبدو الحيوية وقد اعتنى بها جيدا . يلمسها كل دقيقة بيده السليمة .. وكأنه يزيل عنها أي جرثومة قد لا تبدو للعين ... ورفع عينه عن ذراعه الميتة ... ليجد سي عبد الباقي يميل برأسه نحو الحاج علي . وقد وضع جريدة في حجره ... وأخذ الجريدة ثم قربها من عينيه متأملا :

ـ لجنة وطنية لجمع آثار الثورة تجتمع من جديد وتدعو المواطنين الى إثراء متحف الثورة استعدادا لتاريخ أحداثها ... بصوت مرتفع قرأ النبأ .... ثم قرأ من جديد :

ـ على أن أحسن تاج توج به حكايات الغرام هو ما يصنعه المأذون ..

ونظر سي صالح الى وجه صاحبه مندهشا وكأنه يتساءل :

ـ وما دخل هذا بذاك .

ولكن سي عبد الباقي أزال دهشته وهو يقول :

ـ لا تندهش أنه عنوان لموضوع آخر ... وقد ذكرني في المثل الآخر .. (واش يخرج العروس من دار باباها) .

قال سي عبد الباقي ذلك وهو يلكز سي السعيد بجانبه ... مشيرا خفية الى وجه سي صالح التائه ، وعلق السعيد وقد زهت نفسه بالمشاركة في الملاحظة :

ـ هو قال والفاهم يفهم ...

وغرس سي عبد الباقي عينيه في الجريدة .. من جديد .. لكن سي صالح

تململ في مجلسه وهو يوجه نظرة ... هناك ... لعصا الأعمى الشاب المتحرك ولسان حاله يردد بأسى :

ـ يحسبونك أعمى ، لا تتركهم يخدعونك ... إنك أهل لكل خير يا سي صالح ... وما ستطلبه إنما هو حق من حقوقك ... لعلك سمعت بالحكايات التي يرددها بعض زملائك ... هناك من لم يشارك أبدا في الكفاح المسلح ورغم ذلك ، يدعي أنه مجاهد ويسرق امتيازات المجاهدين الحقيقيين ... نعم إن هذا الكلام غير بعيد عن الصحة ... ثم ألم يقل أحد المجاهدين الكبار :

هناك ثلاثة أنواع من المجاهدين : واحد يعيش على حسابه فقط ، وواحد يعيش على حساب غيره ، وواحد يعيش الجميع على حسابه ...

وأين موضوعي من هذه القصة يا ترى ؟ إنه والله صادق قائل هذه الحكمة ... ولكنها ليست الحكمة يا سي صالح إنها الواقع الذي يخلق الحكمة .. الواقع الذي يرفضه الكثير ... وأنت منهم رغم تشددك في المطالبة بحقك : ...

ـ ولذلك لا بد أن تقدم أشياءك لمتحف الثورة . إنها في الحقيقة أشياء الثورة كانت أمانة عندك لا غير ...

قال سي عبد الباقي ذلك فجأة ونظر الى صديقه مشفقا ... ولم يجبه سي صالح لكنه نظر اليه متأملا . ثم ابتسم ابتسامة من كان نائما وكأن موسيقى عسكرية أيقظته ...

وتذكر تلك الموسيقى التي كان يجيء بها عسكر الاستعمار قدماء المحاربين أمام بيوتهم في المناسبات الوطنية .. وفجأة اهتزت نفسه في انتفاضة انقاذ غريبة ... وجد نفسه يختار .

ونظر لأصحابه جميعا وهو يهز رأسه قائلا :

ـ واش يخرج العروس من بيت باباها ... صدقت يا أخي .. إنها في الحقيقة

كالعروس ، تلك الأشياء الجميلة . التي كانت ملكا لي مدة من الوقت ..

قال الجملة الأخيرة بعد صمت قصير .

وقاطعه سي عبد الباقي بدهشة وإعجاب :

ـ كانت ملكا لك لمدة من الوقت ؟.. ما أعظمك يا رجل .. وضحك سي صالح مسايرا صديقه صاحب الرجل الثالثة .. ثم أردف :

ـ لا تقاطعني ، فقط قل لي يا رفيق .. هل هذا المتحف لا يدخله اللصوص ؟ ..

وهل الحراسة عليه مشددة ؟... ثم هل القائمون عليه أمناء ؟...

ـ لا شك في ذلك يا صديق .. والأهم الذي لم تسأل عنه ، أنهم سيكتبون إسمك الحركي ، وإسمك الحقيقي ، على أشيائك بحروف بارزة مع صورتك ... هل يكفي هذا ؟

وتأمل سي صالح مستقر قدميه وهو يقول بجد :

ـ أعتقد أن هذا يكفي ... يكفي الكثير ، حتى ولو كانت المنحة ناقصة ...

ووجد الرجلان نفسيهما يفترقان كل منهما أخذ منعرجا الى منزله .. يلفهما معا تصور واحد لأشياء جميلة لا بد أن تحصل لها ، ولكل واحد من هؤلاء ، وأولئك الناس ...

وعندما اختلط صوت خطوات سي عبد الباقي بخطوات أبنائه نسي الموضوع تماما ..

أما سي صالح ... فقد كان ينقل قدميه بخفة وكأنه قد ارتاح فورا من كيس ثقيل كان يرهق كاهله ... أصبح ثقل الحمل في لحظة من اللحظات أشياء صغيرة وجميلة لا وزن مادي لها ، أصبحت تصورات ... أصبحت فكرا رفيعا ... أصبحت ذكريات لا يمكن أن تنسى ، أصبحت آمالا رائعة من حق كل الناس

وليس من حقه وحده ..

وعندما وصل الى عتبة باب منزله كان يردد بصوت كان يسمعه وحده :

ـ إنه - فعلا - واجب كبير ، حتى ولو ضاعت المنحة كلها ، نعم كلها ..

الشيء المؤكد

في النهاية استسلم الى وحدته . لم يعد لديه شيء يفعله ، بل أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا . أحب شيء أن يتأمل .. أقفل النافذة والباب سد كل كوة ينفذ منها النور ارتمى على ظهره تزى من موسيقى شجرة الياسمين الصغيرة ... صوته أصبح كئيبا ... هل يتأثر السمع بالبصر ... أصابه ذعر مفاجيء .. وكان النمل يزحف على بدنه . أحس دبيبه على صدره وساعديه .. ومن بعيد كانت أصوات « الجاواق » تهدهد . ليس يدري مصدرها ..

وهو صغير طالما جرى الى الافراح حيث يكثر الغناء ويتنوع مرة غاصت قدمه في الوحل انتشله عمه محمد العجوز ... سقطت نظارته فظل يتحسس الأرض . الى أن وجدها ليجد معها النور ... أدرك أن بصره ضعيف ... ضعيف جدا ... قال الطبيب ـ انها نتيجة طبيعية لمرض ولدت به وغذته قلة التغذية ... قلة التغذية تغذى ...

لكل شيء غذاء ... اذن ... كانت أمه العجوز لا تريد له أن يتألم وبمجرد ما يصمت ... ويركن للهدوء والتأمل يبدأ عذابها هي . لا ولد لها سواه ... ولا حبيب له سواها ..

كان يتمنى أن تبقى على الأقل حتى يجد أنيسا ... ليعوضه عنها ... ولكنها لم تحقق أمنيته .

ذهبت وهي أدرى الناس بأنه سوف لن يجد هذا الأنس بسهولة ، لا أحد يقبل أن يمضى حياته مع رجل أظلمت عيناه ، ذهبت أمه دون أن تريد ذلك ... كانت في كثير من الأحيان تدعو الله أن يأخذه قبلها ... حتى لا تتركه للوحشة والوحدة والظلام .

ليس في ذكريات حياته سوى ذكرى واحدة جميلة ، لذيذة ... وبعيدة أيضا ... بعيدة جدا ... عشر سنوات ... كان صبيا يدق أبواب الشباب .. بإمكانيات قليلة وخجل كبير .. لا مال ولا تعليم ولا صحة .. نظاراته كثيرا ما كان يعير بها ... يا أربع عيون .. يا أربع عيون .. هكذا كان زملاؤه يحيونه ويدعونه ، وكأنه لا اسم له ولا هوية ... شخص واحد وقتها كان يدرك مدى الالم الذي يجعله يعانيه عندما يشاهد وضعه هذا .. سليمة ابنة الجيران ربما كان ذلك شفقة منها ... وقد كانت أكبر منه بعامين ... هكذا كان يفسر اهتمامها وقتها .. لكن الحقيقة كانت أجمل بكثير ... فقد كانت (سليمة) تحبه .. تحبه كثيرا .. وتتمنى أن يبادلها الحب ... وكان يحبها وربما حدث ذللك قبل أن تبوح له هي بعواطفها .. ولكن خوفه من الحب كان بقدر هذا الحب .. إن لم يكن الخوف يحوي حبه في أغلب الأحيان حتى يعتقد أنه ربما كان في حلم وآفاق منه .. ولا داعي لبناء قصور من الامال على مجرد حلم .. وكأنه كان يعرف مستقبله وما تحمله له الأيام ... أمه أيضا كانت لا تشجعه ... وتضطرب كلما حدثها عن الجيران ... وأحوال الجيران واخبارهم ...

ونفخ فيه الحب من روحه ... فاقبل على الإبتسام واصبح كثيرا ما يغسل نظارته كل يوم حتى تبدو عيناه الصفروان لتعجب ابنة الجيران ... ويحسن من هيأته ولا يكاد النشاط يفارق شعره الأصفر الجميل .. أصبح خفيفا أكثر ... مرحا ... مبتسما ... كمن عثر على كنز ...

وأشرقت مع الربيع حياته .. وبدأ يعمل خادما عند أحد التجار ... وبدأ يكسب ... لكن ذلك يبدو غير كاف ، فامه لا تزال تعمل عند (مدام غوزلا) تغسل لها الثياب وتنظف البيت من العتبة الى السقف نظير (فرنكات) تأخذها كل يوم فلا تكاد تسد الرمق ...

كانت كثيرا ما ترجع من عملها متعبة .. متعبة من نفسها وروحها مقهورة .. خصوصا عندما تلح (مخدومتها) على بقائها لوقت متأخر بسبب ضيوف أو الإعداد لمناسبات . حيث يكثر الشغل ... وتكثر الأوامر .. كانت وقتها تشعر أن الحظ أخطاء القسمة وتمادى في الخطأ ... المال الزوج والولد .. لمدام (غوزالا) والفقر اليتم والترمل لها هي .. هل هذا حق ؟ هل هذه عدالة ... قالوا لها يوما . أن لنا الجنة ... جئتنا هنا فقالت لهم ، أخشى أن يسبقونا لها بسياراتهم وطائراتهم فنخسر الجنتين ... واستغفروا الله بصوت غاضب عندما سمعوا جوابها .. فاستغفرت معهم وهي لا تدري لماذا غضبوا منها ...

ورغم ذلك فقد ظهرت الحياة جميلة وجميلة جدا في عيني كمال ... يكفي أن تكون في سليمة .. ابتسامة واحدة وهي رائحة غادية تشد من أوده ... وتروي ضمأه الغريب لم يكن كفصل الشباب للجنس الآخر ...

وسليمة فتاة حلوة لطيفة ، كل لفتاتها وحركاتها في عينيه جميلة ... لم يكن منطق الحب وحده هو الذي يحكم على ذلك ... فقد كانت الفتاة حقا جميلة ... كلحن عذب أو كزهرة ندية ، أو نظرة حالمة ، كان كل ما فيها يوحي بالأمن ، بالدفء بالطمأنينة .... ربما لكل هذه الأسباب أحبها .... وربما أحبها بدون أدنى سبب ...

كانت لحظات سعيدة تلك ، ولا داعي للاستمرار في سرد نهاية هذه الذكرى الجميلة ... لأنها ستصبح غير جميلة ... البتة . والنهاية كان حلمه أكبر من ساعديه ... وأبعد من تصوراته ...

ـ سيتشلني الرجل من العدم ، من الانتحار لو دعاني الى مجلسهم ..

ـ تمتم بذلك وكأنه يحدث نفسه غير شاعر بأن الغروب قد جعل الدنيا تظلم أكثر .. بالنسبة له لا فرق ... فيما هو يعود كل يوم من الحديقة يجد البيت خالية ... من كل معالم النور والدفء والحنان ، في الحديقة يبعث في نفسه نوعا من الاستئناس من الشعور بالانتماء ... كان يشعر أن ما حوله يشع نورا ، فقط وهو يسمع كلمة من هنا وضحكة من هناك وشتمة من هنالك ... كان الناس يمارسون الحياة وكان يراهم بأذنيه .. ويسمع انفعالاتهم وغضبهم وسعادتهم ... فيشعر أنه يشاركهم هذه الحياة إن وجوده في الحديقة ولو كان وحيدا يعتبر سلبيا وايجابيا ... الحركة والأصوات والصياح والأزيز إنها الحياة بعينها ...

ـ ربما سيدعوني غدا ... أما أنا فلن أذهب إليهم متطفلا ، إن الأعمى أيضا له كرامة ...

وفي صباح اليوم التالي وجد كمال نفسه يتحسس طريقه الى الحديقة ... وبحث ببصيرته عن الكرسي الذي تعود الجلوس عليه كان مشغولا ... ولم تدم حيرته فقد جاءه صوت من هناك يعرض عليه الجلوس مرحبا ...

ـ في الحقيقة كراسي الحديقة العامة ملك مشاع ... قال ذلك سي عبد الباقي وهو يمسك بعصا كمال البيضاء ليجلسه بجانبه .. ملاطفا ..

أجابه كمال وهو يبتسم بتحفظ :

ـ لكنني تعودت ان أجد المكان شاغرا .. وتعودت الوصول إليه دون مشقة .. أنت تعلم ...

ـ نعم .. ولكن جلوسك وحدك أيضا ربما يقلقلك .. وكم من مرة عزمت على دعوتك ثم أحجمت ... إنك شاب ... ونحن شيوخ وقاطع كمال سي عبد الباقي في سعادة غامرة :

ـ أبدا ... أبدا ... بل كثيرا ما سعدت بالاستماع اليك وتمنيت أن أشارككم

المجلس ...

ـ حقا ..؟ إذن هات ما عندك ...

ـ ما عندي شيء يا سيدي ..

ـ بل عندك الكثير .. أين تعمل ؟

ـ أعمل ؟ ..

وضحك كمال بسخرية .. وهو يهز رأسه هزة اليائس المحطم .

لكن سي عبد الباقي يجيبه دون أن تتغير نبرات صوته القوي :

ـ نعم تعمل ... ولكل إنسان كفاءة لا بد من استغلالها ...

ـ أما أنا فلا كفاءة لي ... ليكن في علمك ...ثم استرسل وكأنه يقرأ كتاب :

عندما أصابتني أزمة المرض الحادة ، قال الطبيب لأمي لا بد من عملية جراحية سريعة .. وذهبت أمي تقترض من مخدومتها (مدام غوزلا) بعض المال لنفقات العملية .. غير أن السيدة الفرنسية لم تحقق رغبتها ... ولم يكن لدينا أهل نعتمد عليهم ... حتى أهل أبي قاطعونا بعد موته . فذهبت بي أمي للمستشفى لكنهم رفضوا إستقبالي ... ورجعت بي الى البيت لأقوم من المرض بعد عشرة أيام أعمى لا أرى شيئا ... إثر التهاب حاد أتى على ما لدي من بصر...

ثم مستطردا يهمس :

ـ ما حز في نفسي أكثر هو موت أمي ...

قال عبد الباقي :

ـ أليس لك غيرها ؟

ـ كان من الممكن أن يكون لي غيرها لو بقيت لي نعمة البصر...

ـ آه فهمت ... ذهب كل شيء اذن ... لا بأس .. لا بأس الحياة في الحقيقة لا تتوقف لمثل ذلك ...

ـ هل تعني ما تقول أيها الرجل ؟

ـ بالطبع ... بالطبع يجب أن تعمل أيها الشاب ... أو لعلك تعودت على الكسل ... قالها الرجل مداعبا ...

ـ كلا ما أنا بكسول أبدا .. لكنني أريد عملا قارا أشعر معه بالإستقرار ... بأنني لست وحيدا ...

ـ لابدّ من ذلك في الحقيقة ...

وفي الميدان إرتطمت مقدمة سيارة أجرة بمأخرة سيارة أخرى عند إشارة المرور .. غادر السائق المضروب مكانه ليعاين أثر الارتطام وشعر صدره يبدو من قيصه المفتوح ملبدا ... ثم تمتم غاضبا .

ـ ألا ترى .. هل أنت أعمى ...

ـ كلا إنك أنت الذي توقفت فجأة ...

ـ ولكنك ترى أليس كذلك ...

ـ نعم كما ترى ... ويبدو أنني سأرى ما يجب فعله معك ...

ـ تهددني إذن ...

وتشابك الرجلان ... وفي الحديقة ضحك رجلان ... ضحكة صافية ... نبعت من كل مخلفات الالم .. عند كمال ... وعند عبد الباقي ، كلاهما لا يسوق سيارة ، هذا لأنه أعمى ، وذلك لأنه شبه مشلول ...

ـ نقصان هرج ...

ـ اللي ما يلحقش العنقود يقول قارص ...

ـ رد كمال مداعبا صديقه الجديد ...

بعد مدة كان كمال قد التحق فيها بالعمل في مصنع لصناعة المكانس والمنفضات المخصصة للمكفوفين ، وبعد أن نسيه صديقه الجديد .. وشلة الحديقة ، يأتي كمال متحسسا خطاه متجها حيث المجموعة الحبيبة وقد كاد التهلل يلفت من أساريره لولا أن تداركه بتقطيبة مفتعلة ثم هز رأسه في ثبات وهو يعلن مجيبا عن سؤال لم يطرح بعد :

ـ قولوا مبروك ... أنا أعمل وسأتزوج ..

ـ مبروك .... مبروك .. ألف مبروك ... أهلا بيك .. أهلا .. كانت وكأنها تصدر من رجل واحد ... ويعقب عبد الباقي وهو يفسح المجال لكمال بجانبه :

ـ هل أنت تخدعنا ... شجعناك على العمل .. فابتعدت في الشوط وجئت تثير غيرتنا ... وبماذا .. بالحب والزواج !!

وضحك الجماعة في صوت واحد .. باستئناس وتحابب ... بعد فترة سعيدة يتحرك كمال مودعا أصدقاءه ... ليتجه نحو الطريق ، يقطعه كما هي العادة وكأي شخص مبصر ... ملوحا بعصاه البيضاء كحمامة سلام تنشر جناحيها على روحه المعذبة ... لكن شاحنة كبيرة كانت مارة بسرعة لا تريد أن يدوم للرجل ذلك .. بخلت عليه حتى بمعايشة الأمل ... وقذفت به بعيدا بين الأرض والسماء ...

وبين صياح الناس وضجيج السيارات ... وتجمع الأطفال وفضولهم ، يتأوه عبد الباقي بألم قائلا :

ـ لعله أخيرا سيجد السعادة ...

ـ ربما لقد مات سعيدا ... نستطيع أن نتأكد من ذلك ... قالها أحد المجموعة ... وهم يتحركون نحو صديقهم الملقى على الرصيف مغطى والناس حوله تثرثر ...

لكن عبد الباقي يتركهم جميعا ويستمر في سيره ولسانه يردد كأي معتوه يكلم نفسه :

ـ سوف لن يتعب أحدا من بعده ... ربما تعبت أنا بذكراه .... ربما ... لا شيء مؤكد في الحقيقة .

موجة برد

عندما وقف أمام المرآة ليصلح من وضع ربطة عنقه ، كان ظهر زوجته الثانية يملأ فراغ المرآة ، حتى يكاد يسد عليه صورة معظم الأثاث في الغرفة .

ـ أيهما أغلى ؟ إمرأته أم الأثاث . الأثاث كلفه كثيرا . إنه من أهم الأحلام التي حققتها ، رغم أنها لم تولد لدى الا أخيرا .. أخيرا ...على كل فقد حققتها ، حققت أحلاما كثيرة في الحقيقة ...

ولكنها لم تكن أبدا قديمة في نفسه ، أولها ذكريات طفولية وهذا ما يبعث على الفخر ...

لقد حققت أكثر مما كنت أتصور ... لم تكن أحلاما بجذرة في ذاكرتي ...أعترف أنها أشياء جديدة ... جديدة جدا علي .. ولكن لا أحد ينكر أنها جميلة جدا كذلك ...وسوف لن أنسى من ساعدني على تحقيقها ... بعض الأصدقاء في الحقيقة كاملو الأخلاص ... أنا أيضا قدمت لهم مساعدات ... واحدة بواحدة لا أحد له دين على الآخر ... الحياة أخذ وعطاء ...

أيهما أغلى ؟ سؤال لم يخطر على باله من قبل .. ولكنه هذه المرة يأخذ أكبر مساحة في ذهنه . وهو يستعد لوضع آخر الرتوش على هندامه .

إنه مدير . ومسؤوليته تقتضي هذا وأكثر . وكل ما يحيط به ويدور حوله . في الحقيقة هو من متطلبات العمل ... والمسؤولية . كانت إمرأته تتحرك اتجاهه . وهي تجر ذيل ثوبها الوردي الشفاف المنور ... تعلقت به أمام إحدى واجهات لندن . وهما يقضيان بعض أيام الراحة خلال الشهر ... كان حلما من أحلامها أن تشتري قماشا ثمن المتر منه يكفي لكسوة أسرة كاملة ... مثل أسرتها هي تماما ... لا داعي لذكر الماضي ...

كانت مختالة معجبة تملأ وجهها الجميل إبتسامة عريضة . فيها من الكلفة ما في ابتسامات الممثلات المبتدئات في السينما الرخيصة ... وقبل أن تضع يديها على كتفيه . استدار بخفة في حركة صبيانية مراهقة ... ثم قبل جيدها العاري في دلال . مشيرا الى الساعة التي في معصمه ومعقبا بابتسامة حالمة . وهو يضع سبابته على أرنبة أنفها مداعبا :

ـ اجتماع كبير ياعزيزتي ينتظرني ... ومع الوزير ...
بعض أنواع العطور يجعل من الرجل الدميم رجلا جميلا مهذبا (جنتلمان)

هذا ما تبادر الى ذهن زوجته الثانية . وهو ينسل خارجا متفحصا حذاءه الأسواد . ثم بنظرة شاملة . اطمأن تماما الى أنه على ما يرام ... إنها متطلبات الشغل ... والمسؤولية .

ملأ غليونه وهو يستريح مغتبطا في المقعد الأمامي للسيارة . رادا على تحية الصباح التي ألقاها السائق . اشعل عود كبريت بعد آخر وكأنه يتلذذ برؤية الشعلة الصغيرة . وهي تعجز المرة تلو المرة عن الوصول الى التبغ الذي حشا به الغليون المصدف بعناية ودقة .

وأخيرا تنفس أول نفس . لتعبق رائحة التبغ الغالي أرجاء السيارة ..

ـ إنها ماركة امبسادور من هولندا ...

ثم استدار فجأة للسائق الذي لم يكن قد فتح فمه ، كان يبدو لاهيا بالسياقة .

ان السائق لم يسأل عن ماركة التبغ ، لعلني تصورت ذلك . وابتسم ابتسامة جمعت الرضا بالتوجس .

ـ ايكون قد فقد شيئا من الشباب ، وأصبح يحدث نفسه كال .. ؟

وصل الى مقر إدارته . نزل من السيارة كأحسن ما يكون مدير مسؤول ... اعتدل في وقفته قبل أن يأمر السائق بالإنتظار ، خطا خطوات جادة تحمل الكثير ، الكثير من المعاني ، كانت خطوات مدير ، يعتز كثيرا أنه مدير ... ويفهم كلمة مدير فهما خاصا جدا وغامضا جدا ...

شق صوت حذائه أروقة الإدارة ، وهو يتحسس بعينيه كل باب من الأبواب ، تهيأ له لمدة أنها ستفتح ، ويشير له أصحابه بالتحية الابواب ظلت مغلقة ...

ـ ماذا حصل ؟ حتى الحاجب غير موجود ...

تساءل وهو يدفع باب مكتبه ، ويتجه رأسا الى حيث الجرس :
ـ دقة ... لا يجيب ، دقتان ... لايجيب ، ثلاثة ... ما هذا هل مات الحجاب جميعا ؟ .

ولم يغضب ، بل شعر بوحشة وغربة للحظات قصيرة . وقف منتفضا كمن يهرب من هواجس غير مريحة . أطل من نافذة مكتبه ، نظر الشارع . الناس كما هي . تسير ، تتحدث ، تتشاجر وتضحك أيضا ...

أخيرا بدأت الابتسامة تعرف طريقها الى وجوه الناس ، تحدث في الهاتف :

ـ أنا المدير .. ابعث لي الجريدة .. انني لا أجد أحدا . ولا أجد حتى

صحف الصباح على مكتبي ...

ـ صباح الخير الأخ المدير .. الجرائد نفدت من السوق .

ـ نفدت ؟ غريبة .. هل عندك جريدة أنت ؟ .

ـ كلا أنت تعرف انني لا أقرأ ...

أغلق الخط وهو يردد :

ـ الأخ المدير ... رجعوا لكلمة الأخ .. ذكرني العامل بأيام مضت لم يكن الحظ حليفي فيها أبدا ...

ها هي صورة زوجته الأولى تهجم عليه .

هي قديمة وكل ما يحيط بها قديم .. حتى الأثاث ...

قال ذلك في نفسه ، وهو يحاول ابعاد الصورة التي اقتحمت ذهنه دون رغبة منه . تفرض نفسها فرضا طفيليا وتترك خطوطا سوداء في نفسه ، لا يستطيع التعبير عنها أبدا ...

دق الجرس مرة أخرى .. انفتح الباب عن الحاجب . قال بغضب :

ـ ألم تسمع ؟ منذ ساعة وأنا أبحث عن (ربكم) .

ـ لم أسمع .. جئت مباشرة من قاعة الإجتماعات لأخبرك ..

ـ قاعة الإجتماعات ؟ ...

لم يترك الحاجب يتم عبارته ، تحرك في عجلة ، لبس سترته هجم على الحاجب يبعده عن طريقه ، اتجه الى قاعة الإجتماعات .

ها هو الوزير حضر حتى هنا . وأنا غائب . ماذا سيكون جوابي ... ورؤساء الأقسام هم الذين استقبلوه ، هكذا إذن . هذا ما تمناه أغلبهم دائما . ازاحتي من الطريق . حتى يخلو لهم الجو . وها قد خلا مرة واحدة ...

كان ذهنه يغلي بالكثير من التأويلات والإستنتاجات . وذكاؤه يعمل بسرعة غريبة ، تتوقف عليها كل مصالحه وامتيازاته . كم استعمل ذكاءه قبل اليوم .

كان يقول لصديقه العامل بالجمارك :

ـ كلانا يريد أن يثري بسرعة . ولكني أشطر منك .. ويؤمن صديقه على كلماته بابتسامة مترددة ، وكأن خيوطا خفية تتحكم فيها .. لا يدري لها مصدرا ..

أصلح مرة أخرى من هندامه ، قبل أن يلمس قبضة باب القاعة ، قاعة الإجتماعات . وسرعان ما انفلت داخلها ليجد أمامه حشدا كبيرا من العمال .. عمال الشركة يحتلون الكراسي .

ـ أين الوزير ... أم أنني لا أرى ، ومن ذاك الذي يلوح بيديه والكل اليه منصت ... كأنني لم أدخل ، لم يعرني أحدهم أي اهتمام .

قال كل ذلك دون أن يفتح شفتيه ... تحرك دون شعور منه الى الأمام . وجد أحد الكراسي شاغرا .. أراح جسمه عليه ... كان في حاجة ماسة الى هذه الراحة القصيرة الزمن ...

نفسه تحدثه :

ـ بئيس جدا هذا اليوم . كما يبدو من الساعات الأولى للصباح على وجه شئوم صبحت اليوم ، زوجتي ، كلا إنها الجديدة والثانية ، والملائمة لرجل مثلي مسؤول ، لا شك أنها دعوات شر جاءت من الأخرى هي ، هي الحاقدة والدميمة والقديمة أيضا ...

شيئا فشيئا ، بدأ يحدق حوله ، الكل لاه عنه ، بأحاديث بعضها فيه حماس ..

ـ ما باله يشد عروقه هذا الذي يجلس قبالتي ... وكأنه وزير وكأنه لم ينطق منذ أعوام ... لم أكن أعلم أبدا أنه يحسن الكلام ، هذا البسيط الساذج .. كنت أتصوره جبانا ... معقدا .. ويعطي الأمر بالكلام أيضا ... لعله يحسب نفسه رئيسا ، فخار يكسر بعضه .. فلأتركهم يتجادلون .. وما دخلي أنا ،

ولماذا جلست معهم ، في الحقيقة هناك رؤساء الأقسام ، وهذا الذي يعطي الأمر بالكلام لا يزال يحسب نفسه رئيسا ..

رئيس مجلس العمال .. لجنة البلدية ... الميثاق ... المناقشة .. الإثراء ... مكاسب الثورة ... الإستفتاء ..

الإستفتاء على ماذا ؟

بعض هذه الكلمات كان يسمعها ، ولكنه لم يكن يتصور أنه سيصبر على سماعها طيلة هذه المدة ...

ربع ساعة يمضي ، والكل عنه لاه . وهذا بجانبه ينفخ نفسه ، ويعتز بشواربه ولباسه الأزرق . وكأنه لا يزال يمارس عمليات الفداء في حي القصبة أو بلكور .

ـ أهو الذي يتفخ . أم أنا الذي أنكمش ؟

لم يكن يدري — ولكنه كان يجد نفسه تتقلص حتى أصبحت حجم قطة متداخلة في بعضها خوفا من موجة برد طارئة ...

ـ لماذا وضع نفسه هذا الموضع . ولماذا لم يبق في مكتبه بعيدا عن جميع هؤولاء الناس .

قام الجميع يغادرون القاعة ، دون أن يشعر ، نظر حواليه ، ليجد الفراغ . سحب من الدخان لا تزال تتخبط في فضاء الغرفة ، لا تجد لنفسها منفذا . زجاج النوافذ قد فقد لمعانه وانعكاساته نتيجة ضباب الأنفاس المكثفة . بقيت أذناه تجتران رنة التصفيقة الأخيرة التي انتهى إثرها الإجتماع وكأنها رنة ناقوس كنيسة تعلن عن وفاة ... جرجر نفسه خارج الغرفة .. ثم خارج الشركة .. السيارة كما تركها والسائق واحترامه وصمته ...

ـ كم يخيفني هذا الصمت ، وهذا الإحترام .. وهذه الحدود المضبوطة بيني وبين هذا السائق ، أكاد أجزم أنه شخص آخر مثل رئيس مجلس العمال .

في النهاية استسلم الى وحدته . لم يعد لديه شيء يفعله ، بل أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا . أحب شيء أن يتأمل .. أقفل النافذة والباب سد كل كوة ينفذ منها النور ارتمى على ظهره ترى من سيسقي شجرة الياسمين الصغيرة ... صوته أصبح كئيبا ... هل يتأثر السمع بالبصر ... أصابه ذعر مفاجيء .. وكان النمل يزحف على بدنه . أحس دبيبه على صدره وساعديه .. ومن بعيد كانت أصوات « الجاواق » تهدهد . ليس يدري مصدرها ..

وهو صغير طالما جرى الى الافراح حيث يكثر الغناء ويتنوع مرة غاصت قدمه في الوحل انتشله عمه محمد العجوز ... سقطت نظارته فظل يتحسس الأرض . الى أن وجدها ليجد معها النور ... أدرك أن بصره ضعيف ... ضعيف جدا ... قال الطبيب ـ انها نتيجة طبيعية لمرض ولدت به وغذته قلة التغذية ... قلة التغذية تغذى ...

لكل شيء غذاء ... اذن ... كانت أمه العجوز لا تريد له أن يتألم وبمجرد ما يصمت ... ويركن للهدوء والتأمل يبدأ عذابها هي . لا ولد لها سواه ... ولا حبيب له سواها ...

كان يتمنى أن تبقى على الأقل حتى يجد أنيسا ... ليعوضه عنها ... ولكنها لم تحقق أمنيته .

ذهبت وهي أدرى الناس بأنه سوف لن يجد هذا الأنس بسهولة ، لا أحد يقبل أن يمضي حياته مع رجل أظلمت عيناه ، ذهبت أمه دون أن تريد ذلك ... كانت في كثير من الأحيان تدعو الله أن يأخذه قبلها ... حتى لا تتركه للوحشة والوحدة والظلام .

ليس في ذكريات حياته سوى ذكرى واحدة جميلة ، لذيذة ... وبعيدة أيضا ... بعيدة جدا ... عشر سنوات ... كان صبيا يدق أبواب الشباب .. بإمكانيات قليلة وخجل كبير .. لا مال ولا تعليم ولا صحة .. نظاراته كثيرا ما كان يعبر بها ... يا أربع عيون .. يا أربع عيون .. هكذا كان زملاؤه يحيونه ويدعونه ، وكأنه لا اسم له ولا هوية ... شخص واحد وقتها كان يدرك مدى الالم الذي يجعله يعانيه عندما يشاهد وضعه هذا .. سليمة ابنة الجيران ربما كان ذلك شفقة منها ... وقد كانت أكبر منه بعامين ... هكذا كان يفسر اهتمامها وقتها .. لكن الحقيقة كانت أجمل بكثير ... فقد كانت (سليمة) تحبه .. تحبه كثيرا .. وتتمنى أن يبادلها الحب ... وكان يحبها وربما حدث ذلك قبل أن تبوح له هي بعواطفها .. ولكن خوفه من الحب كان بقدر هذا الحب .. إن لم يكن الخوف يحوي حبه في أغلب الأحيان حتى يعتقد أنه ربما كان في حلم وآفاق منه .. ولا داعي لبناء قصور من الامال على مجرد حلم .. وكأنه كان يعرف مستقبله وما تحمله له الأيام ... أمه أيضا كانت لا تشجعه ... وتضطرب كلما حدثها عن الجيران ... وأحوال الجيران واخبارهم ...

ونفخ فيه الحب من روحه ... فاقبل على الابتسام واصبح كثيرا ما يغسل نظارته كل يوم حتى تبدو عيناه الصفروان لتعجب ابنة الجيران ... ويحسن من هيأته ولا يكاد النشاط يفارق شعره الأصفر الجميل .. أصبح خفيفا أكثر ... مرحا ... مبتسما ... كمن عثر على كنز ...

وأشرقت مع الربيع حياته .. وبدأ يعمل خادما عند أحد التجار ... وبدأ يكسب ... لكن ذلك يبدو غير كاف ، فامه لا تزال تعمل عند (مدام غوزلا) تغسل لها الثياب وتنظف البيت من العتبة الى السقف نظير (فرنكات) تأخذها كل يوم فلا تكاد تسد الرمق ...

كانت كثيرا ما ترجع من عملها متعبة .. متعبة من نفسها وروحها مقهورة .. خصوصا عندما تلح (مخدومتها) على بقائها لوقت متأخر بسبب ضيوف أو الإعداد لمناسبات . حيث يكثر الشغل ...وتكثر الأوامر .. كانت وقتها تشعر أن الحظ أخطاء القسمة وتمادى في الخطأ ... المال الزوج والولد .. لمدام (غوزالا) والفقر اليتم والترمل لها هي .. هل هذا حق ؟ هل هذه عدالة ... قالوا لها يوما . أن لنا الجنة ... جنتنا غدا فقالت لهم ، أخشى أن يسبقونا لها بسياراتهم وطائراتهم فنخسر الجنتين ... واستغفروا الله بصوت غاضب عندما سمعوا جوابها .. فاستغفرت معهم وهي لا تدري لماذا غضبوا منها ...

ورغم ذلك فقد ظهرت الحياة جميلة وجميلة جدا في عيني كمال ... يكفي أن تكون في سليمة .. ابتسامة واحدة وهي رائحة غادية تشد من أوده ... وتروي ضمأه الغريب لم يكن كضمإ الشباب للجنس الآخر ..

وسليمة فتاة حلوة لطيفة ، كل لفتاتها وحركاتها في عينيه جميلة ...لم يكن منطق الحب وحده هو الذي يحكم على ذلك ... فقد كانت الفتاة حقا جميلة ... كلحن عذب أوكزهرة ندية ، أو نظرة حالمة ، كان كل ما فيها يوحي بالأمن ، بالدفء بالطمأنينة .... ربما لكل هذه الأسباب أحبها .... وربما أحبها بدون أدنى سبب ...

كانت لحظات سعيدة تلك ، ولا داعي للاستمرار في سرد نهاية هذه الذكرى الجميلة ... لأنها ستصبح غير جميلة ... البتة . والنهاية كان حلمه أكبر من ساعديه ... وأبعد من تصوراته ...

ـ سيتشلني الرجل من العدم ، من الإنتحار لو دعاني الى مجلسهم ...

ـ تمتم بذلك وكأنه يحدث نفسه غير شاعر بأن الغروب قد جعل الدنيا تظلم أكثر .. بالنسبة له لا فرق ... فيها هو يعود كل يوم من الحديقة يجد البيت خالية ... من كل معالم النور والدفء والحنان ، في الحديقة يبعث في نفسه نوعا من الإستئناس من الشعور بالانتماء ... كان يشعر أن ما حوله يشع نورا ، فقط وهو يسمع كلمة من هنا وضحكة من هناك وشتمة من هنالك ... كان الناس يمارسون الحياة وكان يراهم بأذنيه .. ويسمع انفعالاتهم وغضبهم وسعادتهم ... فيشعر أنه يشاركهم هذه الحياة إن وجوده في الحديقة ولو كان وحيدا يعتبر سلبيا وايجابيا ... الحركة والأصوات والصياح والأزيز إنها الحياة بعينها ...

ـ ربما سيدعونني غدا ... أما أنا فلن أذهب إليهم متطفلا ، إن الأعمى أيضا له كرامة ...

وفي صباح اليوم التالي وجد كمال نفسه يتحسس طريقه الى الحديقة ... وبحث ببصيرته عن الكرسي الذي تعود الجلوس عليه كان مشغولا ... ولم تدم حيرته فقد جاءه صوت من هناك يعرض عليه الجلوس مرحبا ...

ـ في الحقيقة كراسي الحديقة العامة ملك مشاع ... قال ذلك سي عبد الباقي وهو يمسك بعصا كمال البيضاء ليجلسه بجانبه .. ملاطفا ..

أجابه كمال وهو يبتسم بتحفظ :

ـ لكنني تعودت ان أجد المكان شاغرا .. وتعودت الوصول إليه دون مشقة .. أنت تعلم ...

ـ نعم .. ولكن جلوسك وحدك أيضا ربما يقلقلك .. وكم من مرة عزمت على دعوتك ثم أحجمت ... إنك شاب ... ونحن شيوخ وقاطع كمال سي عبد الباقي في سعادة غامرة :

ـ أبدا ... أبدا ... بل كثيرا ما سعدت بالاستماع اليك وتمنيت أن أشارككم

المجلس ...

ـ حقا ..؟ إذن هات ما عندك ...

ـ ما عنندي شيء يا سيدي ..

ـ بل عندك الكثير .. أين تعمل ؟

ـ أعمل ؟ ..

وضحك كمال بسخرية .. وهو يهز رأسه هزة اليائس المحطم .

لكن سي عبد الباقي يجيبه دون أن تتغير نبرات صوته القوي :

ـ نعم تعمل ... ولكل إنسان كفاءة لا بد من استغلالها ...

ـ أما أنا فلا كفاءة لي ... ليكن في علمك ...ثم استرسل وكأنه يقرأ كتاب :

عندما أصابتني أزمة المرض الحادة ، قال الطبيب لأمي لا بد من عملية جراحية سريعة .. وذهبت أمي تقترض من مخدومتها (مدام غوزلا) بعض المال لنفقات العملية .. غير أن السيدة الفرنسية لم تحقق رغبتها ... ولم يكن لدينا أهل نعتمد عليهم ... حتى أهل أبي قاطعونا بعد موته . فذهبت بي أمي للمستشفى لكنهم رفضوا إستقبالي ... ورجعت بي الى البيت لأقوم من المرض بعد عشرة أيام أعمى لا أرى شيئا ... إثر التهاب حاد أتى على ما لدي من بصر ..

ثم مستطردا يهمس :

ـ ما حز في نفسي أكثر هو موت أمي ...

قال عبد الباقي :

ـ أليس لك غيرها ؟

ـ كان من الممكن أن يكون لي غيرها لو بقيت لي نعمة البصرر ...

ـ آه فهمت ... ذهب كل شيء اذن ... لا بأس .. لا بأس الحياة في الحقيقة لا تتوقف لمثل ذلك ...

ـ هل تعني ما تقول أيها الرجل ؟

ـ بالطبع ... بالطبع يجب أن تعمل أيها الشاب ... أو لعلك تعودت على الكسل ... قالها الرجل مداعبا ...

ـ كلا ما أنا بكسول أبدا .. لكنني أريد عملا قارا أشعر معه بالإستقرار ... بأنني لست وحيدا ...

ـ لابدّ من ذلك في الحقيقة ...

وفي الميدان إرتطمت مقدمة سيارة أجرة بمأخرة سيارة أخرى عند إشارة المرور .. غادر السائق المضروب مكانه ليعاين أثر الإرتطام وشعر صدره يبدو من قميصه المفتوح ملبدا ... ثم تمتم غاضبا .

ـ ألا ترى .. هل أنت أعمى ...

ـ كلا إنك أنت الذي توقفت فجأة ...

ـ ولكنك ترى أليس كذلك ...

ـ نعم كما ترى ... ويبدو أنني سأرى ما يجب فعله معك ...

ـ تهددني إذن ...

وتشابك الرجلان ... وفي الحديقة ضحك رجلان ... ضحكة صافية ... نبعت من كل مخلفات الالم .. عند كمال ... وعند عبد الباقي ، كلاهما لا يسوق سيارة ، هذا لأنه أعمى ، وذلك لأنه شبه مشلول ...

ـ نقصان هرج ...

ـ اللي ما يلحقش العنقود يقول قارص ...

ـ رد كمال مداعبا صديقه الجديد ...

بعد مدة كان كمال قد التحق فيها بالعمل في مصنع لصناعة المكانس والمنفضات المخصصة للمكفوفين ، وبعد أن نسيه صديقه الجديد .. وشلة الحديقة ، يأتي كمال متحمسا خطاه متجها حيث المجموعة الحبيبة وقد كاد التهلل يلفت من أساريره لولا أن تداركه بتقطيبة مفتعلة ثم هز رأسه في ثبات وهو يعلن مجيبا عن سؤال لم يطرح بعد :

ـ قولوا مبروك ... أنا أعمل وسأتزوج ..

ـ مبروك .... مبروك .. ألف مبروك ... أهلا بيك .. أهلا .. كانت وكأنها تصدر من رجل واحد ... ويعقب عبد الباقي وهو يفسح المجال لكمال بجانبه :

ـ هل أنت تخدعنا ... شجعناك على العمل .. فابتعدت في الشوط وجئت تثير غيرتنا ... وبماذا .. بالحب والزواج !!

وضحك الجماعة في صوت واحد .. باستئناس وتحابب ... بعد فترة سعيدة يتحرك كمال مودعا أصدقاءه ... ليتجه نحو الطريق ، يقطعه كما هي العادة وكأي شخص مبصر ... ملوحا بعصاه البيضاء كحمامة سلام تنشر جناحيها على روحه المعذبة ... لكن شاحنة كبيرة كانت مارة بسرعة لا تريد أن يدوم للرجل ذلك .. بخلت عليه حتى بمعايشة الأمل ... وقذفت به بعيدا بين الأرض والسماء ...

وبين صياح الناس وضجيج السيارات ... وتجمع الأطفال وفضولهم ، يتأوه عبد الباقي بألم قائلا :

ـ لعله أخيرا سيجد السعادة ...

ـ ربما لقد مات سعيدا ... نستطيع أن نتأكد من ذلك ... قالها أحد المجموعة ... وهم يتحركون نحو صديقهم الملقى على الرصيف مغطى والناس حوله تثرثر ...

لكن عبد الباقي يتركهم جميعا ويستمر في سيره ولسانه يردد كأي معتوه يكلم نفسه :

ـ سوف لن يتعب أحدا من بعده ... ربما تعبث أنا بذكراه .... ربما ... لا شيء مؤكد في الحقيقة .

الفهرس

المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الطبع المتعددة
ورشة احمد زبانة
الجزائر ـ 1985



زهور ونيسي :

- من مواليد ديسمبر 1936 بمدينة قسنطينة .
- مناضلة في صفوف حزب جبهة التحرير الوطني منذ سنة 1956 .
- متحصلة على شهادة ليسانس في الأدب وشهادة ليسانس في الفلسفة
- دراسة عليا في علم الاجتماع
- عضو مؤسس للإتحاد الوطني للنساء الجزائريات .
- عضو إتحاد الكتاب الجزائريين
- عضو اتحاد الصحافيين الجزائريين
- مديرة ورئيسة تحرير مجلة « الجزائرية » بالإتحاد الوطني للنساء الجزائريات من سنة 1970 إلى سنة 1982
- عضو سابق في المجلس الشعبي الوطني من 1977 - إلى 1982 .
- أول سيدة تعين عضوا في الحكومة بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية جانفي سنة 1982
- عضو اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني 1983 .
- حاليا وزيرة الحماية الاجتماعية .

السعر في الجزائر : 18ر50 د٠ج